من كليات رسائل النور

الآية الكبرى

مُشاهَدات سائح يسأل الكون عن خالقه

بديع الزمان
سعيد النورسي

ترجمة

إحسان قاسم الصالحي

من كليات رسائل النور

الآية الكبرى

مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه

بديع الزمان
سعيد النورسي

ترجمة
إحسان قاسم الصالحي

١٤٠٣ هـ | الطبعة الاولى | ١٩٨٣ م

مطبعة العاني - بغداد


أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

بقلم : الدكتور محسن عبدالحميد

استاذ التفسير والعقائد الاسلامية ـ جامعة بغداد

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبدالله وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد :

فلم يكد العالم الاسلامي يصل الى مشارف القرن الرابع عشـــر الهجري إلاّ وجد نفسه صريعاً في أحضان التمزق والتخلف •

ولو أن باحثاً كان يطل بحياده الكامل على ذلـك العـالم يومئـذ ، لوجد فيه لا محالة جهلا بالاسلام وأمية وجوعاً ومرضاً يفتك بكيانه كله •

وكأن هذه المأساة كلها لم تكف لسحق عظـــام المسلمين ، فظهرت منها الى الوجود مأساة أخرى ، وهي : مواجهة المسلمين غير المخططة وغير المتكافئة للحضارة الحديثة ، التي كانت تقـــود حركتها التغييرية الهائلة الفلسفات المادية التي انتجها صراع المؤسسات الكهنوتية مـع الحركـــة العلمية الحديثة • ومن هنا فقد ولّدت تلك المواجهة المشؤومة ، الاحتلال العسكري والاقتصادي والغـــزو الفكري والانحراف الثقافي والخديعـــة الحضارية في العالم الاسلامي كلـــه ، في غيبة الاسلام الحق ، وفي ظـــل استسلام الى العقلية الخرافية ، والسلوك المبتدع ، منـــذ زمـن طويل • وتحت وصاية منهج باهت لدراسة الجوانب الشكلية من الثقافة الاسلامية وعدم التعمق في اسسها ومنطلقاتها وابداعاتها الفكريـــة • على أنه مـــن الانصاف أن نقول ان محاولات متناثرة هنا وهناك قد ظهرت لايقاف تلك المأساة ، الا انها لم تستطع أن تمنع معظم أجزاء العالم الاسلامي في الوقوع تحت اقدام المستعمرين • وبذلك تحققت غربة الاسلام التي أخبـر بها

رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » . ولكن كان لابد أن يظهر في الواقع الشق الثاني من ذلك الوعد الصادق . عندما وصف الرسول الكريم هؤلاء الغرباء بأنهم الذين يصلحون ما أفسده الناس .

وقد ظهر هؤلاء المصلحون المجددون في أزمنة متقاربة من العصور الاخيرة ، تحسسوا آلام الأمة وحملوا همومها ودرسوا اسباب تأخرها وسقوطها .منطلقين من المعرفة العميقة بالاسلام والاستقراء الشامل لتطور الاوضاع في العالم الاسلامي كله عبر العصور والادراك السليم لطبيعة المرحلة التي كان يمر بها المسلمون .

ومن اعمق هؤلاء ايمانا ، واغزرهم علما ، واصلبهم جهادا ، وأدقهم فهما لطبيعة المرحلة ، وأمضاهم قلما وأشرقهم اسلوبا ، الاستاذ المفكر ، بديع الزمان ، سعيد النورسي رحمه الله تعالى ، الذي انبثق في سماء تركيا انبثاق البدر في حلكات الظلام ، فقام بدور تجديدي عظيم في بعث الهمم وانقاذ الايمان ومقاومة الغزو الفكري ، بعرض حقائق الاسلام، والوقوف كالطود الشامخ أمام الكفر ومؤامراته ، والفسق ودرناته ، والجهالة وويلاتها ، والفرقة وشناعاتها . داعياً الى الاخوة والمحبة وبناء الذات والخلاص من الانانية ، ونبذ العبودية للاصنام الجديدة والاوثان المتنوعة ، التي جاءت بها الأوكار المادية في الحضارة الحديثة ، فاستنارت بفكره العقول ، وصفت بدعوته القلوب ، واطمأنت بروحانيته النفوس .

ولقد سخر الاستاذ العظيم حياته في سبيل المهمة النبيلة : مهمة بناء الشخصية المسلمة التي لا تتزعزع أمام الاعاصير الهوج . مهمة انقاذ المجتمع المهدد من انهيار حضاري وايماني واخلاقي . من خلال اكثر من مائة وثلاثين رسالة عميقة ، انبثقت من هدى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . شرح الاستاذ فيها أصول العقائد الاسلامية بأدلتها العقلية والعلمية القاطعة الدامغة ، وقدم من خلالها مذهبية الاسلام الشاملة في الكون والحياة والمجتمع والانسان ، بدقائقها وبمقدماتها ونتائجها . معالجا بمنطق صارم وشاعرية فذة وقلم سيال ، المشكلات الخطيرة التي أثيرت في عصره أمام الاسلام ، والشبهات التي نثرت بخبث من حوله . تلك التي نسجت خيوطها العنكبوتية الواهية ، دوائر الاستشراق ومراكز

التبشير والمؤسسات الثقافية الملحقة بوزارات المستعمرات والخارجية في الدول الاستعمارية الكبرى ، مبيناً اعجاز القرآن الكريم وصدق النبـوة وحكمة التشريع وانسانية الاسلام وعظمة مبادئه الروحية والاخلاقية .

ومن الحقائق الثابتـة أن الاستاذ النورسي قـدم رسـائله النورية الكبرى من أعمـاق عصـره ، وادراك لطبيعة حركته ، وصراعات أفكاره ، واساليب التغير فيه ، باسلوب مطابق لروح العصر ، مستجيب لمعضلاته ، يفهمه الخاص والعام .

يفهمه الخاص لما كان يجد فيه من لذة اسرار الأدلة وحلول المشكلات التي تدخل الهدوء والاتزان الى عقله المضطرب .

ويفهمه العام لما كان يجد فيه من عرض الحقائق الكونية العويصـة باسلوب المنطق الفطري الذي كان يفهمه ولا يفهم غيره .

ومن الانصاف أن نقرر ان رسائل النور استطاعت أن تبني في طول تركيا وعرضها مدرسة اسلامية ، روحية وثقافية كبرى ، وارفة الظلال ، مستقيمة المسالك ، آتت أكلها باذن ربها في كل مكان ، فشكر المؤمنون ربهم في كل صقع ، على هذه النعمة الربانية الكبرى التي دخلت بيوتهم وأنارت عليهم حياتهم وأنقذتهم من التيه والحيرة والصراع والجهل والوقوع في براثن الشرك الجلي والخفي وعبادة غير الله سبحانه وتعالى .

وقد شاء الله سبحانه وتعالى ألا تبقى هذه النعمة الايمانية محصورة في اطار الناطقين باللغة التركية ، فقيض أخاكريمـا ، ومترجمـا دؤوبا ، وهو الاستاذ احسان قاسم الصالحي ، فترجم لنا منذ سـنوات خلـت مقطوعات ومقالات كثيرة متنوعة من رسائل النور . لكي يعم خيرها وتنتشر بركاتها بين الناطقين بلغة القرآن المطهرة .

ومن تلك المقالات والرسائل النفيسة رسالة « الآية الكبرى » التي هي حقا آية كبرى ، في عرض الحقائق عـن الـذات الالهيـة والاسـرار الربانية وتجليات أسمائها الحسنى في الوجود . من خلال سياحة عقليـة وروحية شاملة ، للتعرف على اسرار الكون ودقائق الحياة ، وتذوق جمال الوجود ، ونظامه الرائع وغائيته المدهشة وقانونه الموحد في جامعية رائعة .

يبدأ النورسي رسالته القيمة برسم خطوط منهج منطقـي في غاية

القوة والرصانة والوضوح ، يمثل خطة هجومه الكاسح على افكارالماديين ، بتفنيد موقفهم وتسفيه عقولهم ، وفساد منطقهم ، في نفي حقيقة الوجود الالهي الحق ، من خلال قانون فطرى واضح وهو «لاقيمة للنفي في المسائل العامة أمام الاثبات فحكمه ضعيف وهزيل » لأن النتيجة واحدة في الاثبات لوجود التساند فيها ، أما في النفي فالنتيجة ليست واحدة بل متعددة • اذ القيود « عندي » في نظري « في اعتقادي » وامثالها تتعدد وتتنوع حسب تعقل كل شخص ونظرته ، فلا تتحد النتيجة عندئذ بل تتفرق اجزاؤها ، فلا يحصل التساند فالاثبات •

ويتقدم «النورسي» في هدوء ذكي ، ليأخذ بيد طالب الحقيقة في جولة رائعة ، شاسعة هائلة ، كي يفتح له فيها مغاليق عقله وقلبه ، ويوقفه أمام لوحة الوجود ، وجمالها الاخاذ ومظاهرها البديعة ، بادئاً رحلته الكونية من عجائب الآفاق العلوية الى مدهشات الكائنات السفلية ،سابراً غورها ، واصفاً اتساقها وتوازنها ، ولوحاتها الفنيــة الرائعة ، التي تأخذ بالالباب وتضرب على أوتار القلوب ، فتوقظ الغافل ، وتنير بصيرة الذاهل ، وتاخذ بيد الجاهل ، الى عالم من حقائق العلم والمعرفة في اطار السببية الحاسمة ، والغائية العميقة ، والتخطيط الكوني الشامل الجامع الذي يقطع بوجــود الخالق العظيم الذي تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن •

كل ذلك باسلوب شاعري خصب ، بعيدا عن قيــود المصطلحــات الكلامية ، وجمود المقدمات الفلسفية التي تزيد في الحيرة ، دون ان تنقذ في عصرنا هذا عقيدة ، أو تبنــي ايمانا ، أو تدخــل اشــراق الروحانية الاسلامية المتزنة في كيان الانسان المسلم •

ان منهج النورسي في هذه الجولة العقلية الروحية المشرقة يقتصر على الانتقال بين ازاهير الآيات القرآنية التي تتحدث باسلوبها المعجز عن مظاهر الخلق وكيفية دلالتها على وجود الحق تبارك وتعالى •

وينطلق الاستاذ في بنــاء هــذا الشموخ الكوني الآخذ بالالباب ، ودلالته على الحقيقة الالهية من علم غزير بالثقافة العقليــة الاســلامية ، ومعرفة تامة بما كان يجري في عصره من تطور في العلوم ، ومن خيــال خصب ولفتات منطقية بارعة ، والق قلبي يقظ مع سريان عجيب في باطن الوجود ، بل نفوذ دقيق الى اعماق ذلك الباطن •

وبعد الانتهاء من عرض أدلة الآفاق والانفس بدقها وجلها يقود السائح الى علم الطمأنينة ، بل علم اليقين الشامل بدليل آخر ساطع قاطع ، وهو : اجماع عشرات الالوف من الانبياء والمرسلين الذين كانوا أرقى النماذج البشرية عقلا ، واصفاهم قلباً ، واطهرهم نفساً ' واقومهم سلوكا ، على وجود الباريء العظيم ، ثم ايمان الملايين من الصفوة البشرية المختارة من أهل العقول الراجحة والقلوب المنورة والنفوس الصافية بما أخبر به الانبياء والمرسلون عن ربهم بوجود الاله الحق والرب الرحمن الرحيم .

ويتساءل النورسي مع السائح : أليس ذلك كله استقراء منطقياً شاملا يدل على عين اليقين بل حق اليقين بوجود الواحد الأحد ؟ واليس ذلك اثباتاً فوق اثبات وبرهاناً فوق البراهين ؟ والا فالى من نلجأ في تاريخ البشرية لنستفتيهم ؟ الا اذا خدعنا عقولنا وأفسدنا فطرتنا ، فلجئنا الى أفراد من الناس الذين أعلنوا الحادهم من خلال عقولهم المضطربة ، وقلوبهم المطموسة ، ونفوسهم المظلمة ، التي لم تنفتح قط لانوار الحق وازاهير الايمان وقيم الفضيلة ونسمات الرحمة .

وقد عد النورسي الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم وحده ، أجلى دليل وأوضح برهان على وجود الخالق العظيم .

فدراسة بيئته وبعثته وحياته وأخلاقه وما جاء به وما جاهد في سبيله وما انتهى اليه أمره ، ودراسة حياة اصحابه وامته دراسة عقلية واعية تقود الى الاقتناع الكامل بان انفجار هذا النور الهائل في ظلمات الصحراء من اعظم الادلة على الحقيقة الالهية .

وانطلق النورسي في هذا المسلك ـ كما كان ينطلق في كل ماكتب ـ من القرآن الكريم الذي قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس جميعا برهانا بحد ذاته ، حيث يقول تعالى «يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا » .

ثم يلتفت الى النور الذي انزله الله تعالى ، فيحاول عبر أدلة عقلية دقيقة ، ودراسة بلاغية رصينة ، وشواهد تاريخية متلاحقة متعانقة . أن يثبت اعجازه القاطع واستحالة كونه صادرا من جهد بشري ، بل انه

لايقدر عليه الا الله القادر الكامل الحق ، الواجب الوجود • وهو شاهد من أقوى الشواهد واعظم البراهين يتكاتف مع البرهان العظيم الذي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كي يضاف الى مشاهد الكون ،ودراسته المتناسقة التي يشهد كل مشهد فيها على وجود خالق الكون ومبدع الوجود •

وينتهي النورسي من جولته الى حصر الحقائق الكونية في ادلة ثلاثة ، تشهد متساندة بوجود بديع السموات والارض «اولها» دليل الحدوث والتغير الكوني الذي يدل على المحدث المغير • و«ثانيها» دليل التعاون والتوازن العجيب بين أجزاء الكون بحيث تأخذ كل ذرة فيه برقبة الاخرى لاخراج النظام الكوني الموحد الذي يدل قطعاً على المنظم المريد • و« ثالثها » دليل التجديد والفاعلية الكونية المستمرة التي تجسد تجليات معاني الاسماء الحسنى المبثوثة في الكون كله ، والتي تقوم بمجموعها شواهد ناطقة وآيات باهرة على وجود الموصوف بتلك المعاني المتجلية ، وهو الله الواحد الاحد ، الفرد الصمد •

وبعد ان يشرق الايمان بوجود الله في كيان السائح كله ، ينقله الاستاذ الى رحاب التوحيد ، فيثبت بان الشرك طعن في الالوهية المطلقة ، وافساد للربوبية الحقة ، والغاء للكمال ، وتثبيت لمظاهر النقص في الوجود كله • بل هو اسناد العجز والحاجة بالقدرة الكاملة ، واتهام الكبرياء بالقصور والضعف ووصف اللامتناهي بالمتناهي ، وتقييد الحاكمية في العالم •

ويوصل بديع الزمان رفيقه السائح الى هذه الحقائق الجلية والاسرار الخفية ، باستقراء شامل لمظاهر الوجود كله من الذرة حتى المجرة ومدى مابينها من نظام موحد ، وعمل منسق وغاية واحدة ، بحيث لايمكن ان ينتهي الباحث المنصف الا الى اقرار الوحدانية ، لان وحدة الله تتجلى لدى العقلاء في وحدة نظام الكائنات ووحدة تكونها المادي • ووحدتها تحتاج الى قدرة واحدة ، سواء في ذلك ايجاد ذرة واحدة او مجرة واحدة بلا فارق زماني

ويعرض النورسي هذه البدائع الكونية ويربط بين اجزائها في نفوذ ملهم الى ذراتها المترابطة من خلال فهم عميق رائع لآيات قرآنية

كريمة ، فيجمع بينها في وحدة متراصة ، لينتهي الى اقرار البراهين الدامغة التي تقود الى الوحدانية الخالصة ، وتحطم الانداد البشرية والحجرية في ثنايا الوجود الانساني ٠

وان سألت ايها المقدم على قراءة هذا السفر النفيس : ماسر نجاح النورسي في احياء معاني الايمان في كيان مئات الالوف من الخاص والعام من ابناء جيله والاجيال التالية ؟

قلنا : ان سر نجاحه يكمن في ايمانه العميق ، وحماسه المنقطع النظير، واسلوبه الرباني القرآني الذي ابتعد عن «علم الكلام التقليدي »وتوجه الى مخاطبة العقل الفطري والقلب السليم ، ممتزجين ، في الجبلة الانسانية ، فلقد ترك اساليب المتكلمين القدماء التي كانت تلائم عصورهم ، وحرر نفسه تماماً من اطار موضوعاتهم ومصطلحاتهم ٠

ومن هنا فقد استطاع النورسي ان ينقذ «علم الكلام» (التوحيد) من مجرد مناقشات وعرض أدلة بلغة جافة ، الى شريان دفاق في كيان المسلم ، ينبض بالحركة والحياة ٠ أي أنه انتشل (علم التوحيد) من التعطيل في مهمته لتحوله الى تيار اجتماعي عارم في العقيدة والسلوك ، عين مركز المسلم في الوسط الحضاري المعقد ، وعرفه بمذهبيته الشاملة ، وأطلعه على مهمته في العالم ، وخلافته في الارض ، وأثبت استاذيته العقيدية والفكرية ٠ بحيث بدأ هذا الانسان المسلم الذي تذوق رسائل النور في ظل التوحيد القرآني المشحون بالادلة النابضة بالحقيقة والحركة والحياة، ينظر الى الفلسفات الملحدة والمنحرفة وكأنها أوراق الخريف اليابسة تنتشر أباديد على قارعات الطرق تدوسها أقدام المارة ٠

لقد حملت رسائل النور معاول التوحيد الحق ، فأهوت بها على مراكز الثقافة الفكرية والاجتماعية التي تفرعت من المدارس المادية التي سارت في القرون الاخيرة ، فانقلت المجتمع التركي المسلم من كارثة حضارية محققة ، لان الامر وصل الى تدريس تلك المبادىء المادية في المدارس والتمكين لها في نفوس الناشئة وابناء الجيل الجديد على صفحات المجلات والجرائد وعبر اجهزة الاعلام المتنوعة ٠

لقد قضى النورسي حياته وهو يريد ان يثبت من خلال رسائل النور استاذية القرآن في الكون كله ، كي ينتهي الى ان تلاميذ القرآن هم اساتذة الدنيا في التمسك بالعقائد الصحيحة ، والشرائع الحكيمة ، والروحيـــة العالية ، والاخلاق السامية ، والسلوك الرباني المستقيم . لتعود للمسلم ثقته بنفسه واعتزازه بأستاذيته ، فلا يستعبد لمبـادىء الكفر وأخـــلاق الكافرين ، حتى يعيد دوره الحضاري الكامل في هذه الدنيـــا ، فينقـــذ البشرية بقوة مبادئه الربانية من الالحاد والانحراف والانحلال .

اننا لانبالغ قط اذا قررنا ان علم التوحيد على يد النورسي استطاع ان يحدث تغييرا شاملا في سلوك الافراد والجماعات ، وانقلب الى قوانين حركة التغيير الفكري والاجتماعي والى الايمان والاصالة واستقلال الذات في حياة المجتمع .

وسيجد القارىء مصداق كلامي في ظلال كلمات الكتاب الحكيمة ، وثنايا سطوره النيرة .

وسيضع عند ذلك الامام النورسي في مكانه الحقيق به بين عظماء الاسلام ومجدديه الكبار في تاريخه المشرق .

وبعـــد :

ففي ختام هذه الكلمات المتواضعات بحق الكتاب ومؤلفه العظيم أتضرع من الله العظيم سبحانه وتعالى ان يجزي بديع الزمان ، الاســتاذ الامــة ، سعيد النورسي خير الجزاء ، وان يوفق مترجمه الى مزيد من الاعمـــال الموفقة ، وان يجزيه عنا جزاء العاملين ، انه سميع مجيب . وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

محسن عبدالحميد

الرباط / ٥ شـــوال / ١٤٠٣ هـ

لمحات من حياة المؤلف

- كان مولده في ربيع سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٣م) في قرية « نورْس » التابعة لولاية بتليس شرقي تركيا • من عائلة كردية مشهورة بالتقوى والورع •

- ظهرت عليه مخايل النبوغ والذكاء منذ نعومة أظفاره ، فتنقل بين القرى والمدن لتلقى العلوم الاسلامية •

- تشرف برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام في مقتبل شبابه وطلب منه أن يُرزق العلم • فبشره الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « سيوهب لك علم القرآن ما لم تسأل شيئاً من الأمة » • فلم يُر منه أن سأل أحداً شيئاً طوال حياته •

- نال اجازة العالمِية ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) وناظر العلماء في زمانه •

- كانت حافظته من اندر ما يكون اذ استطاع ان يحفظ ما يقارب التسعين من امهات الكتب في التفسير والحديث والفقه واصوله والنحو ، حتى حفظ القاموس المحيط للفيروزآبادى الى باب السين •

- بدأت دراسته على العلوم الحديثة من كيمياء وفيزياء وجغرافية ••• وهو في العشرين من عمره • ولتعدد قابلياته وذكائه النادر وشجاعته الفائقة ذاع صيته وأطلق عليه لقب « بديع الزمان » •

- توجه الى استانبول سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) بغية تأسيس جامعة اسلامية في شرق الاناضول تدمج فيها العلوم الدينية مع العلوم الحديثة ، الا ان ظروف الحرب العالمية الاولى حالت دون إكمال المشروع ٠

- شكل من طلابه والمتطوعين « فرق الانصار » ٠ وأبلوا بلاء حسناً في الحرب العالمية الاولى ضد القوات الروسية المعتدية ٠ وألف اثناء المعارك تفسيره القيّم « اشارات الاعجاز في مظان الايجاز » باللغة العربية ٠ فكان يمليه على أحد تلاميذه وهو على صهوة جواد أو في الخنادق ٠

- جرح جرحاً بالغاً ، وأُسر على أثره ، وسيق الى معسكرات الاسرى في « قوصتورما » في شمال شرقي روسيا ٠٠ مكث هناك سنتين واربعة اشهر ٠ ثم ادركته العناية الربانية وتمكن من الفرار ٠

- عيّن عضواً في « دار الحكمة الاسلامية » ١٣٣٦هـ (١٩١٨م) ٠ وهي أعلى مؤسسة علمية في الدولة العثمانية تقديراً لجهاده وعلمه وبخاصة علم الحديث ، وألف في هذه الفترة كثيراً من الرسائل في الايمان والقرآن باللغة العربية ، ونشرها ضمن مجموعة « المثنوى العربي النورى » ٠

- ويجمل بنا ان نستمع اليه وهو يصف حالته الروحية ، ومعاناته الوجدانية في هذه المرحلة ، كتبها بعد مرور ثلاثين سنة عليها ٠ وذلك في كتابه « مكتوبات » صفحة ٣٣٠ إذ يقول :

« هوت صفعات عنيفة قبل ثلاثين سنة على رأس « سعيد القديم الغافل » ٠٠٠ ففكر في قضية « الموت حق » ٠ ووجد نفسه غارقاً في الأوحال ٠٠٠ استنجد ٠٠ وبحث عن طريق ، وتحرى عن منقذ

يأخذ بيده ·· رأى السبل أمامه مختنقة ·· حار في الأمر واخذ كتاب (فتوح الغيب) للشيخ عبدالقادر الكيلاني رضى الله عنه وفتحه متفائلاً ، ووجد امامه العبارة الآتية :

أنت في دار الحكمة فاطلب طبيباً يداوي قلبك ··

يا للعجب ! · لقد كنت يومئذٍ عضواً في « دار الحكمة الاسلامية » ، وكأنما جئت اليها لأداوي جروح الامة الاسلامية ، والحال انني كنت أشد مرضاً وأجدر بالعلاج من اي شخص آخر ·· فالأولى بالمريض ان يداوي نفسه قبل أن يداوي الآخرين ·

نعم ، هكذا خاطبني الشيخ : أنت مريض ·· ابحث عن طبيب يداويك ! ··

قلت : كن أنت طبيبي أيها الشيخ !

وبدأت أقرأ ذلك الكتاب كأنه يخاطبني أنا بالذات ·· كان شديد اللهجة يحطّم غروري · فأجرى عمليات جراحية عميقة في نفسي ·· فلم اتحمل ، ولم اطقه صبراً ·· لأني كنت اعتبر كلامه موجهاً اليّ ·

نعم هكذا قرأته الى ما يقارب نصفه ·· لم استطع اتمامه ·· وضعت الكتاب في مكانه ، ثم أحسست بعد ذلك بفترة بأن آلام الجراح قد ولّت وخلفت مكانها لذائذ روحية عجيبة ·· عدت اليه ، وأتممت قراءة كتاب « استاذي الأول » · واستفدت منه فوائد جليلة ، وامضيت معه ساعات طويلة اصغي الى اوراده الطيبة ومناجاته الرقيقة ··

ثم وجـدت كتاب « مكتوبات » للامـام الرباني احمـد الفـاروقي السرهندي ، مجدّد الألف الثاني(١) فتفاءلت بالخير تفاؤلاً خالصاً ، وفتحته ، فوجدت فيه عجباً ·· حيث ورد في رسالتين منـه لفظة « ميرزا بديع الزمان » فأحسست كأنه يخاطبني باسمي ، اذ كان اسم ابي « ميرزا » وكلتا الرسالتين كانتا موجهتين الى ميرزا بديع الزمان· فقـلت :

ـ يا سبحان الله ··· ان هذا ليخاطبني انا بالذات ، لأن لقب سـعيد القديم كان بديع الزمان ، ومع أنني ما كنت أعلم أحداً قـد اشتهر بهذا اللقب غير « الهمداني » الذي عاش في القرن الرابع الهجري · فلابد ان يكون هناك أحـد غيره قد عاصر الامام الرباني السرهندي وخوطب بهذا اللقب ، ولابد ان حالتي شبيهة بحالته حتى وجـدت دوائي بتلك الرسالتين ··

والامام الرباني يوصي مؤكداً في هاتين الرسالتين وفي رسائل اخـرى أن :

« وحّد القبلة » أي : اتبع إماماً ومرشداً واحداً ولا تنشغل بغيره ! لم توافق هذه الوصية ـ آنذاك ـ استعدادي واحوالي الروحية ··· واخذت افكر ملياً :

ايهما اتبع ! · أأسير وراء هذا ، أم أسير وراء ذاك ؟ ·· احترت كثيراً وكانت حيرتي شديدة جداً ! اذ في كل منهما خواص وجاذبية ، لذا لم استطع ان اكتفي بواحد منهما ··

(١) (٩٧١ـ١٠٣٤هـ) ينتهي نسبه الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه · جاهد فتنة الملك (أكبر) ، حباه الله بكرامات عظيمة ظاهرة ، أدّى مهمة التجديد حق الاداء ، يعتبر من أعاظم الطريقـة النقشبندية ، له مؤلفات كثيرة ، منها « مكتوبات » ترجمه الى اللغة العربية محمد مراد المنزلوي · وسماه « الدرر المكنونات » · (المترجم)

وحينما كنت اتقلب في هذه الحيرة الشديدة ٠٠ اذا بخاطر رحماني من الله سبحانه وتعالى يخطر على قلبي ويهتف بي :

- « ان بداية هذه الطرق جميعها ٠٠ ومنبع هذه الجداول كلها ٠٠ وشمس هذه الكواكب السيارة ٠٠٠ انما هو (القرآن الكريم) ٠ فتوحيد القبلة الحقيقي اذن لا يكون الا في القرآن الكريم ٠٠ فالقرآن هو أسمى مرشد ٠٠، وأقدس استاذ على الاطلاق ٠٠٠ ومنذ ذلك اليوم اقبلت على القرآن واعتصمت به واستمددت منه ٠٠ فـ « الكلمات » (سوزلر) والانوار المستقاة من القرآن الكريم (أي رسائل النور) اذن ليست مسائل علمية فحسب ، وانما مسائل قلبية ، وروحية ، وأحوال ايمانية ٠٠ فهي بمثابة علوم الهية نفيسة ومعارف ربانية سامية » ٠

- وعلى اثر هذه الحالة ترك استانبول عائداً الى مدينة « وان » وقضى سنتين متعبداً متأملاً في جبل « أرك » القريب من المدينة ٠ وبان في الافق أفول « سعيد القديم » وتباشير بزوغ « سعيد الجديد » ٠ الذى انصرف بكليته الى مهمة « انقاذ الايمان » ٠

- نفي الى « بارلا » سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م) وهي ناحية نائية جنوب غرب تركيا ظل فيها ثماني سنوات ونصف ٠ ألف خلالها معظم « رسائل النور » ٠

- ثم نفي الى « قسطموني » ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) وهي مدينة في الشمال الغربي لتركيا ، وظل فيها تحت الاقامة الاجبارية ثماني سنوات أيضاً ٠ لم ينقطع خلالها عن التأليف والعبادة والعمل ٠ وهذه الرسالة « الآية الكبرى » هي احدى ثمار حياته في تلك المدينة ٠٠٠

ثم نفي منها الى قضاء « اميرداغ » في اواسط الاناضول ٠٠٠

- وهكذا قضى ربع قرن من حياته بين نفي وسجن ومراقبة ومحاكمات ، وكانت العدالة تأخذ نصابها ، وتبرأ ساحته من التهم التي يوصمها اعداء الاسلام بـه ٠

- ألّف منذ سنة ١٩٢٦ الى سنة ١٩٥٠م ما يزيد على (١٣٠) رسالـة باللغة التركية وألف قبلها « ١٥ » رسالة وكتاباً باللغة العربيـة ، وكانت هذه الرسائل تنتشر حتى سنة ١٩٥٥ بالاستنساخ اليدوي٠

- قضى السنوات الأخيرة من عمره في الاشراف على طبع (رسائل النور) التي كانت تنتشر بسرعة مذهلة ٠ فضلاً عن زياراته الكثيرة لطلابه وتوجيههم الى « العمل الايجابي البناء » ، اي : العمل وفق مرضاة الله سبحانه وحده دون الاعتماد على القـوة الماديـة في الدفاع عـن حقوقهم ، ودون الاكتراث بالتيارات المعادية والافكار المناوئة للاسلام٠

- في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك لسنة ١٣٧٩هـ الموافق ٢٣/مارت/١٩٦٠ اغمض الاستاذ سعيد النورسي عينيه عن الدنيـا الفانيـة ليفتحها على مشـاهد عالم البرزخ الجميل ٠ فرحمة الله عليه رحمة واسعة وجزاه الله خيراً كثيراً ٠

- ترك موسوعة ايمانية رائعة تسدّ حاجة هذا العصر وتخاطب مدارك أبنائه تلك هي الرسائل التي استقاها من فيض نور القرآن الكريم ، فسماها « رسائل النور » ؛ فهي : تفسير شـهودي للقرآن الكريم ، يعتمد على حقائق الآيات الكريمة ، واثبات معانيها ؛ بتوضيحها من خلال استشهادات يتحاور فيها العقل والقلب ، وتمتزج فيها الروح واللطائف الاخرى ٠ فهي تفسير لمعاني القرآن الكريم اكثر مما هـو

تفسير لألفاظ الآيات الكريمة وعباراتها ، تعالج القضايا والمقاصد الاساسية التي يدور عليها القرآن الكريم وهي : « التوحيد » و « حقيقة الآخرة » و « صدق النبوة » و « عدالة الشريعة » .

- تتألف هذه الرسائل من اكثر من (١٣٠) رسالة . ضمت في مجلدات بالحجم الكبير .

١ ــ سوزلر (الكلمات) في (٦٥٠) صفحة وهي تضم ٣٣ رسالة .

٢ ــ مكتوبات (المكتوبات) في (٤٥٠) صفحة وهي تضم ٣٣ رسالة .

٣ ــ لمعه‌لر (اللمعات) في (٤٣٠) صفحة وهي تضم ٣٣ رسالة .

٤ ــ شعاعلر (الشعاعات) في (٦٤٠) صفحة وهي تضم ١٥ رسالة. ورسالة « الآية الكبرى » هي الشعاع السابع منها .

٥ ــ ملحق بارلا في (٢١٠) صفحة .

٦ ــ ملحق قسطموني في (٢٠٤) صفحة .

٧ ــ ملحق أمير داغ في جزئين (٢٨٤) صفحة و(٢٢٠) صفحة .

٨ ــ ختم التصديق الغيبى في (٢٢٠) صفحة .

٩ ــ رسائل صغيرة أو متوسطة ، محاكمات (١٦٢ صفحة) . (سيرة ذاتية) (٦٥٠ صفحة) . سنوحات (٩٨ صفحة) . مناظرات (٨٨ صفحة) . (مفتاح لعالم النور) (٦٢ صفحة) . (المدخل الى النور) (١٥٠ صفحة) . ديوان حرب عرفى (٧٠ صفحة) .

١٠ــ أما رسائله باللغة العربية فهي : اشارات الاعجاز في مظان الايجاز (٢٤٠ صفحة) ، المثنوى العربي النورى (٣٢٠ صفحة)

(وهي تضم احدى عشرة رسالة) · قزل ايجاز على سـلم المنطق (٩٦ صفحة) · الصقيل الاسلامي (٢٦٠ صفحة) وتضم الخطوات الست ، والخطبة الشامية ·

- والله نسأل ان يأخذ بايدينا الى القيام بترجمة هذه الرسائل الثمينة الى اللغة العربية ونشرها تباعاً مثلما وفقنا في طبع ونشر (رسـالة الحشر) و (قطوف من أزاهير النور) · ومن الله التوفيق والهداية ·

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ·

احسان قاسم الصالحي
جمادى الآخـرة /١٤٠٣
مارت /١٩٨٣


الآية الكبرى
مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه

تنبيـه مهـم وايضـاح

على الرغم من أهمية هذه الرسالة وعظيم شأنها ، لا يفهم كل شخص ، كل مسألة من مسائلها • ولكن لا يبقى دون حظ منها ، فالـذي يدخـل بستاناً عظيماً ، ولا تصل يده الى جميع ثماره ؛ فحسبه ما ناله منها ، اذ البستان لم يخصص له وحده ، بل لذوي الأيدي الطويلة حصتهم وحظهم كذلـك •

وهناك خمسة أسباب تعيق فهم هذه الرسالة :

اولهـا : أنني كتبت مشاهداتي كما تراءت لي وفق فهمي ، كتبتها لنفسي ، فهي لم تكتب شأن الرسائل الاخرى بمستوى فهم الآخرين ومدى تلقيهم •

ثانيهـا : أن التوحيد الحقيقي قد كُتِب في صورته العظمى ، بفيض تجلي « الاسم الاعظم » ، فأصبحت مسائله واسعة جداً ، وعميقة جــداً ، وطويلة جداً ؛ لذا لا يتمكن كل شخص أن يحيط بها مباشرة ولأول وهلة •

ثالثهـا : أن كل مسألة من مسائلها بحد ذاتها حقيقـة كبرى طويلة ــ وحفاظاً على وحدة الحقيقة وعدم تجزئتها ــ قد تصبح الصحيفة الواحدة جملة مطولة واحدة ، فهناك مقدمات كثيرة تورد بمثابة دليل واحد فقط •

رابعهـا : ان كل مسألة ــ من أغلب المسـائل التي تعالجهـا هـذه الرسالة ــ لها أدلتها الكثيرة ، وحججها الوفيرة ، فعند القيام بضم عشرة أدلة أو عشرين أحياناً لسوقها برهاناً واحـداً تكون المسـألة طويلـة ،

لا تسعها المدارك القصيرة ٠

خامسها : لقد تعرّضت لأنوار هذه الرسالة بفيوضات رمضان المبارك ونفحاته ، الاّ أنها كُتبت على عجل ، واكتُفيت بالمسودة الاولى ؛ لما كنت أعانيه من الأسقام ومتاعب المضايقات من مختلف الجهات وكنت اشعر عند كتابتها انها ترد الى القلب دون اختيار مني ولا ارادة ، فلم أر من اللائق أن أمسها بشيء من التنظيم أو التشذيب حسب تفكيري ؛ لذا أخذت الرسالة هذا الشكل الذي يستشكل على الفهم ٠ فضلاً عما درجت فيها فقرات المقام الاول الذي كتب باللغة العربية ٠

ولكن رغم هذه الاسباب الخمسة التي هي مدار القصور والاشكال فان الرسالة ذات أهمية عظيمة

....

فهذه الرسالة التي هي حقيقة من حقائق « الآية الكبرى » وتفسير لها ، هي الشعاع السابع (من كتاب الشعاعات) والحجة الايمانية الاولى (من مجموعة عصا موسى) ٠

يتكون هذا الشعاع من مقامين ، مع مقدمة توضح أربع مسائل مهمة : المقام الاول يبين ـ باللغة العربية ـ تفسير الآية الكبرى ، والمقام الثاني يبين براهين المقام الاول ويوضحها ويثبتها ٠

أن طول المقدمة الآتية نسبياً ، وتوضيحها المسهب ، كان بدون اختيار مني ، فهناك اذن حاجة أن أملي عليّ هكذا ، وقد يرى البعض طولها قصراً ٠

سعيد النورسي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

يفهم من أسرار هذه الآية الجليلة : ان حكمة مجيء الانسان الى هذه الدنيا ، والغاية منه ، هي : معرفة خالق الكون سبحانه ، والايمان بـه ، والقيام بعبادته · كما أن وظيفة فطرته ، وفريضة ذمّته ، هي : معرفة الله والايمان به ، والتصديق بوجوده وبوحدانيته إذعاناً ويقيناً ·

نعم ؛ ان الانسان المسكين الذي ينشد فطرةً الحياة الدائمة الخالدة ، والعيش الأبدي الرغيد ، والذي له آمال بلا حدود وآلام بلا نهاية ، لابد ان تكون جميع الاشياء والكمالات هابطة تافهة بالنسبة اليه ، بل ليس لأكثرها أية قيمة تذكر · ما عدا الايمان بالله ومعرفته ، وما عدا الوسائل التي تأخذ بيده الى ذلك الايمان الذي هو أساس تلك الحياة الأبدية ومفتاحها ·

ولما كانت « رسائل النور » قد أثبتت هذه الحقيقة بوضوح تـام ، وببراهين قاطعة ، فنحيل القارىء الكريم اليها ، مبينين هنا ورطتين ممـا يزعزع ذلك اليقين الايماني في هذا العصر ، ويؤدي الى الحيرة والتردد ، وذلك ضمن « مسائل أربع » :

الورطـة الاولى : وسبيل النجاة منها مسألتان

المسـألة الاولى : مثلمـا أثبت في « اللمعة الثالثة عشـرة » مـن « المكتوب الحادي والثلاثين » بالتفصيل أنه : « لا قيمة للنفي في المسائل العامة أمام الاثبات ، فحكمه ضعيف وهزيل » ٠

مثال ذلك : اذا اثبت شاهدان من عامة الناس رؤية الهلال في أول رمضان ، ونفى الرؤية آلاف من الوجهاء والعلماء قائلين : « اننا لـم نـر الهلال » ٠ فان نفيهم هذا يبقى غير ذي قيمة ولا أهمية ؛ ذلك لأن «بالاثبات» يؤازر الواحد الآخر ويشد عضده ، ويقويه ، ففيه تساند واجتماع ٠ بينما « النفي » ، لا فرق فيه بين ان يكون صادراً من شخص واحد أو من ألف شخص ٠ اذ النافي منفرد باعتبار انه وحده الذي ينفي ؛ ذلك لأن المثبت ينظر الى الأمر نفسه ثم يصدر حكمه ، كما هو الحال في مثالنا : أنه اذا قال أحدهم : هو ذا الهلال في السماء ؛ فان الآخر يصدّقه ويؤيده مشيراً الى المكان نفسه ، فيشتركان في النظر الى المكان نفسـه ، فيتساندان ، ويقوى حكمهما ويرسخ ٠

أما في النفي والانكار فالنافي لا ينظر الى الأمر نفسه ولا يسعه ذلك ، لذا أصبحت القاعدة :

« لا يمكن اثبات النفي غير الخاص وغـير المحـدد مكانه » ، قاعـدة مشـهورة ٠

مثال ذلك : اذا اثبتُّ لك وجود شيء معين في الدنيا ، وانكرتَ انت وجوده ، فينبغي عليك ان تقوم بالبحث عنه ، والتحري في أرجاء الدنيا كافة ، حتى تثبت عدم وجود ذلك الشيء الذي أتمكن بنفسي أن أثبته بمنتهى السهولة ، وبايماءة بسيطة مني اليه ، بل عليك أن تغوص أيضاً في أعماق الأزمنة الغابرة ، حتى تستطيع أن تقول : « لا يوجد فعلاً ٠٠٠ لم تحـدث حادثة كهذه ! »

ولما كان النافون والمنكرون لا ينظرون الى الأمر بذاته ، وانما يصدرون

أحكامهم حسب رغباتهم ، ووفق عقولهم ونظراتهم ؛ لذا لابد أن لا يسائله أحدهم الآخر ، والاّ يكون ظهيراً له ؛ ذلك لأن حُجُب الرؤية مختلفة لديهم والاسباب المانعة للمعرفة متنوعة عندهم • اذ يستطيع كل شخص ان يقول : انني لا أرى الشيء الفلاني ••• وعندي انه غير موجود ••• وباعتقادي انه لا يوجد •• ولكنه لا يمكنه ان يقول : إنه فعلاً لا يوجد ؛ واذا قال بهذا النفي ـ وبخاصة في المسائل الايمانية التي تشمل الكون كله ـ فان كلامه يكون إفكاً عظيماً وكذباً كبيراً بكبر الدنيا ، ولن يكون صدقاً قط ولا يمكن ان يستصوب أو يقوّم ابداً •

نخلص مما تقدم : ان النتيجة في الاثبات واحدة ، وان فيه تسانداً ، أما في النفي فالنتيجة ليست واحدة بل متعددة ، إذ القيود : عندي •• في نظري ••• وباعتقادي ••• وأمثالها من الأسباب التي تحجب الرؤية الصحيحة تتعدد وتختلف باختلاف الاشخاص ؛ لذا تأتي النتائج متعددة ايضاً ، ومتفرقة ، فلا يحصل التساند مطلقاً •

وهكذا ، إنطلاقاً من هذه الحقيقة :

فلا قيمة ولا أهمية للكثرة الظاهرة للكفار والمنكرين الذين يصدون عن الايمان ••

ولكن ، في الوقت الذي ينبغي ان لا يتأثر يقين المؤمن ولا يشوب ايمانه بأي نوع من أنواع الشك والتردد ، نرى ان ما يثيره فلاسفة أوروبا من شبهات وجحود في هذا العصر قد جلب الحيرة الى بعض المنكوبين المفتونين بهم ، فأزال يقينهم وأباد سعادتهم الأبدية وأوقعهم في شقاء وتعاسة ؛ ذلك لأن انكارهم هذا حوّل معنى (الموت) الذي يصيب يومياً ثلاثين ألفاً من الناس(١) من معناه الحقيقي الذي هو : إنهاء وظيفة الانسان على الأرض،

(١) أبقينا الاعداد الواردة كما هي حفاظاً على أمانة الترجمة • (المترجم)

الى صورة الاعدام الابدي والفناء النهائي والنهاية المرعبة المخيفة · واصبح القبر – الذي لا ينغلق بابه – يسمم لذائذ حياة ذلك المنكر وينغص عليه عيشه بآلام مبرحة ملوّحاً له العدم الرهيب دائماً باعدامه الابدي · فأفهم من هذا أنه :

ما أعظم الايمان وما أعظم نعمته ! وافهم كيف انه (حياة) للحياة !

المسألة الثانية : لا يؤخذ بكلام من هم خارج إطار علم او صنعة في مسألة من مسائلهما ؛ دارت حولها المناقشة · حتى لو كانوا عظماء وعلماء وصناعاً مهرة في اختصاصاتهم · ولا يؤخذ حكمهم حجة في تلك المسألة ، ولا يدخلون ضمن اجماع علماء ذلك الضرب من العلم ·

فمثلاً : لا يسري حكم مهندس عظيم كواحد من الأطباء في تشخيص مرض ما أو علاجه · لذا لا تؤخذ الأقوال المنكرة الصادرة من أعظم فيلسوف (مادى) بنظر الاعتبار فيما يخص (المعنويات) ولا يُقام لها وزن ، وبخاصة مَن توغل منهم كثيراً في الماديات فطمس على بصيرته وتعامى عن النور ، فتبلّد ذهنه عن المعنويات وانحدر عقله الى عينيه وتردى حتى اصبح لا يرى غير المادة ولا يعقل شيئاً دونها ·

فيا ترى ما قيمة أقوال فلاسفة ذهلوا أمام تفرعات أصغر الاجزاء ، وتاهوا أمام أكثرها تشتتاً وغرقوا فيها ؟ وكم يساوي كلامهم واقوالهم في مسائل التوحيد والايمان والمعنويات السامية التي اتفقت عليها مئات الآلاف من أهل (العلم والحقيقة) أمثال الشيخ الكيلاني – قدس الله سره – ذي الدهاء القدسي والبصيرة الخارقة الذي كان ينظر الى العرش الاعظم وهو بعد على الأرض ، والذي سعى مرتقياً مراتب المعنويات زهاء تسعين سنة ، حتى كشف الحقائق الايمانيةَ بعلم اليقين وعين اليقين بل حتى بحق اليقين ؟ · ألا يكون انكارهم واعتراضهم خافتاً واهياً أشبه بطنين البعوضة أمام هدير السماء ودويّ رعودها ؟! ·

ان ماهية الكفر الذي يظهر العداء للحقائق الاسلامية ويبارزها انما هي انكار ، وجهل ، ونفي ، وحتى لو بدت ـ ظاهرياً ـ اثباتاً ووجوداً ، الا ان معناها : عدمٌ ، ونفي • أما الايمان : فهو علمٌ ، ووجودٌ ، واثبات ، وحكمٌ ، وحتى مسائله السلبية فهي ستار لحقيقة ايجابية وعنوان لهـا •

ولو ان أهل الكفر ـ الذين يصدّون عن الايمان ـ سعوا ليثبتوا ـ بمشكلات عويصة ـ اعتقاداتهم المنكرة السلبية ويجعلوها مقبولة بصورة « قبـــول العدم » و « تصديق العدم » ، فان ذلك الكفر يمكن ان يعدّ ـ مـن جهة ـ علماً خطأً وحكماً غير صائب • والا فان ما هو سهل ارتكابه من مجـرد « الرفض » و « الانكار » و « عدم التصديق » ليس الا جهلاً مطلقاً ، وعدم حـكم •

والخلاصة : ان الاعتقاد بالكفر قسمان :

اولهمـا : ما ليس له علاقة بالحقائق الاسلامية • فهو تصديق خطأ ، واعتقاد باطل ، وقبولٌ خطأ ، وحكم ظالم ، خاصٌ بـه • فهذا القسم مـن الكفر خارج اطار بحثنا ، لا شأن لنا به ولا شأن له بنا •

ثانيهما : ما يبارز الحقائق الايمانية ويعارضها ، وهذا أيضاً قسمان :

الاول : هو رفضٌ ، وعدم قبول ، وهو مجرد عدم تصديق الاثبات ، وليس هذا الكفر الا جهلاً ، والا عدمَ حكمٍ ، وهو سهل ارتكابه ، وهو خارج نطاق بحثنا أيضاً •

الثاني : هو قبولٌ للعـدم ، وتصديق قلبي للعدم ، فهذا القسم من الكفر هو حكمٌ ، وهو اعتقاد ، يفضى بصاحبه الى الالتزام • فيضطر الى اثبات نفيه وانكاره •

والنفي بدوره قسمان :

اولهما : ان يقول النافي : انه لا يوجد في موقع خـاص ، وفي جهـة معينة ، كذا شيء • وهذا القسم من النفي المعيَّن يمكن اثباته ، وهو أيضاً خارج بحثنا •

القسم الثاني : هو نفي وانكار المسائل الايمانية والقدسية والعامة والمحيطة التي تتوجّه الى الدنيا ، وتشمل الكون ، وتتطلع الى الآخرة ، وتضم العصور • وهذا النفي ـ كما أثبتنا في المسألة الاولى ـ لا يمكن اثباته مطلقاً ، لأنه يلزم ان يكون هناك نظرٌ محيط بالكون ، ورؤية شاملة للآخرة ومشاهدة نافذة الى الزمان غير المحدود بجميع جهاته ، ليثبت مثل هذا النفي •

الورطة الثانية : وسبيل النجاة منها : وهي ايضاً مسألتان :

الاولى : ان العقول التي ضاقت أمام « العظمة » و « الكبرياء » و « المطلق غير المتناهي » وقصرت عن ادراكها نتيجة الغفلة أو المعصية او الانغماس في الماديات والانسياق وراءها قد اخذت ـ هذه العقول ـ تنزل الى الانكار وتنفي ـ بغرور علمي ـ المسائل الهائلة العظمى لعجزها عن الاحاطة بها •

نعم ان الذين عجزوا عن استيعاب المسائل الايمانية المحيطة الواسعة جداً ، والعميقة جداً ، في عقولهم الصلدة الضيقة ـ معنىً ـ ويقروها في قلوبهم الفاسدة الميتة ـ تجاه المعنويات ـ يقذفون بأنفسهم الى أحضان الكفر والضلال ، فيغرقون •

ولكن اذا ما تمكّن هؤلاء من إنعام النظر في كنه كفرهم ، وفي ماهية ضلالهم ، لرأوا : أن ما هو معقول في الايمان تجاه العظمة ولائق بها وضروري لها ، يقابله المحال تلو المحال ، وغير الممكن والممتنع طي ذلك الكفر وضمنه •

وقد اثبتت « رسائل النور » هذه الحقيقة بمئات الموازين والموازنات ، وبقطعية تامة كقطعية حاصل ضرب الاثنين في اثنين يساوي أربعاً • فمثلاً : ان الذي يعجز ان يقبل الايمان بوجوب وجوده سبحانه وتعالى وبأزليته وبصفاته المحيطة ، لعظمته سبحانه ولعظمة صفاته الجليلة ، سيحيل وجوب الوجود ، وأزليته سبحانه ، وصفات الألوهية الى جميع الموجودات

غير المحدودة ، بل الى الذرات غير المتناهية ، ليتمكن من الاعتقاد بكفره -
أو عليه ان يتخلى عن العقل كالسوفسطائيين الحمقى بانكاره وجود نفسه ،
ونفيه وجود الكون • وهكذا تستقر الحقائق الايمانية والاسلامية كلهـــا
باستنادها على «العظمة » ـ التي هي من شأن تلك الحقائق ومن مقتضاها ـ
وتثبت في القلوب الصافية والعقول السليمة ، بكمـــال الاذعان والتسليم
المطمئن ، منقذة أصحابها مما يجابهها من الكفر ومحالاته المدهشة وخرافاته
الموحشة وجهالاته المظلمة •

نعم ؛ انه يبدو واضحاً : ان العظمة والكبرياء ستاران ضروريان لابد
منهما ؛ ويتبين ذلك من اعلان تلك العظمة والكبرياء في كل وقت : في الأذان ،
في الصلاة وفي أغلب الشعائر الاسلامية بترديد :

الله اكبر • الله اكبر • الله اكبر • الله اكبر

ويتضح ذلك ايضاً في الحديث القدسي « **العظمة ازاري والكبرياء
ردائي** »(١) •

**ويظهر أيضاً في العقدة السادسة والثمانين من المناجاة الأحمدية (عليه
الصلاة والسلام) البليغة في (الجوشن الكبير) :**

يـا مـن لا ملـك الا ملكـه   يا من لا يحصي العبـاد ثنـاءه
يا من لا تصف الخلائق جلالـه   يا من لا تنـال الاوهـام كنهه
يا من لا يدرك الابصار كمالـه   يا من لا يبلغ الافهـام صفاتـه
يا مـن لا ينال الافكار كبريـاءه   يا من لا يحسن الانسان نعوتـه
يا مـن لا يـرد العبـاد قضاءه   يا من ظهـر في كل شيء آياتـه
سـبحانك يـا لا إلـه الا انت الامـان الامـان نجنـا مـن النـار

---

(١) « الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النـار » •• رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة رضى الله عنه • ـ المترجم ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تسبح له السموات السبع والأرض

ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح

بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم

إنه كان حليما غفورا

[ان هذا المقام الثاني في الوقت الـذي
يفسّر هذه « الآية الكبرى » فهو يبيّن كذلك
براهين المقـام الاول الـذي يتضمنه والذي جـاء
باللغة العربية ويوضح حججه]

الباب الأول

براهين الوجود

١

ان آيات كثيرة في القرآن الكريم ـ أمثال هذه الآية العظمى ـ تذكر في مقدمة تعريفها لخالق هذا الكون ، السموات ، التي هي أسطع صحيفة للتوحيد ، ما يتأمل فيها متأمل الا تغمره الحيرة ويغشاه الاعجاب ، فيستمتع بمطالعتها بكل ذوق ولذة ؛ فالاولى ان يُستهل بها ٠

نعم ؛ ان كل من يأتي ضيفاً الى مملكة هذه الدنيا ويحل في دار ضيافتها ، كلما فتح عينيه ونظر رأى :

مضيفاً في غاية الكرم ٠

ومعرضاً في غاية الابداع ٠

ومعسكر تدريب في غاية الهيبة ٠

ومتنزهاً جميلاً في غاية الروعة ٠

ومشهراً في غاية الاثارة للشوق والبهجة ٠

وكتاباً مفتوحاً ذا معان في غاية البلاغة والحكمة ٠

وبينما يولع الضيف السائح ان يعلم ويتعرف على صاحب هذه الضيافة الكريمة ، وعلى مؤلف هذا الكتاب الكبير ، وعلى سلطان هذه المملكة المهيبة ، اذا بوجه السموات الجميل المتلالىء بالنجوم النيّرة يطل عليه منادياً : « انظر اليّ ، فانا اعرّفك بالذي تبحث عنه » ٠ فينظر السائح ويرى : أن ربوبية ظاهرة تتجلى :

في رفعها مئات الألوف من الأجرام السماوية بلا عمد ولا سند ، قسم منها ما هو اكبر من أرضنا الف مرة ، وما هو أسرع إنطلاقاً من القذيفة بسبعين مرة ٠

وفي تسييرها وجريها تلك الاجرام معاً بسرعة فائقة بلا مزاحمة ولا مصادمة ،

وفي ايقادها تلك القناديل المتدلية بدون زيت يغذيها وبدون إنطفاء لها،

وفي ادارتها تلك الكتل الهائلة التي لا يحدها حد بلا ضوضاء ولا صخب ولا اختلال ،

ويرى تجليها كذلك :

في تسخيرها تلك المخلوقات العظيمة في مهام معينة كاستسلام الشمس والقمر لاداء وظائفهما دون إحجام أو تلكؤ ،

وفي تصريفها هذا العدد الهائل الذي لا تحده الارقام ضمن ذلك البعد الشاسع غير المتناهي ما بين دائرة القطبين تصريفاً يجرى في الوقت نفسه ، وبالقوة نفسها ، وبالطراز نفسه ، وبسكة الفطرة نفسها ، وبالصورة نفسها ، ومجتمعة ، دون ان تصاب بأدنى نقص أو خلل ،

وهاله ما يرى من تجلي الربوبية : في اخضاعها تلك السيارات الضخمة التي تملك قوى هائلة ومتجاوزة لحدودها ، منقادةً مطيعةً لقانونها دون ان تتجاوز أو تنحرف ·

وفي جعلها وجه السماء صافياً نقياً يتنظف طاهراً مما تلوثه انقاض تلك الاجرام المزدحمة دون ان يُرى عليه قذى ولا أذى ·

وفي سوقها تلك الأجرام كأنها مناورة عسكرية منسقة وعرضها امام المخلوقات المشاهدين كأنها مشاهد فلم سينمائي ، بتقليبها الأرض بالليل والنهار ، وتجديدها أنماط المناظر الحقيقية الخلابة المثيرة للخيال لتلك المناورة الرائعة وابرازها في كل ليلة ، وفي كل سنة ·

فهذه الربوبية الجليلة الظاهرة وما تظهر ضمن فعاليتها من حقيقة جلية مركبة من « التسخير ، والتدبير ، والادارة ، والتنظيم ، والتنظيف ، والتوظيف » تشهد بعظمتها المهيبة هذه ، وباحاطتها الكلية هذه ، على

وجوب وجود خالق تلك السموات وعلى وحدته ، وتشهد ـ كما هو مشاهد ـ بان وجوده جلّ وعلا أجلى من وجود هاتيك السموات ·

وقد ذكر هذا المعنى في المرتبة الاولى من المقام الاول كالآتي :

« لا إله إلا الله الواجب الوجود الذي دلَّ على وجوب وجوده في وحدته : السموات بجميع ما فيها، بشهادةِ عَظمةِ إحاطةِ حقيقةِ : التسخير ، والتدبير ، والتنوير ، والتنظيم ، والتنظيف ، والتوظيف ، الواسعة المكملة بالمشاهدة »(١) ·

* * *

(١) جاءت هذه النصوص من المقام الأول باللغة العربية فابقيناها كما هي · (المترجم)

٢

ثم ان الفضاء الذي هو محشر العجائب ومعرض الخوارق والمسمى بـ **جو السماء** ، نادى بصوت هادر ذلك القادم الى الدنيا ٠٠ ذلك الضيف السائح : « انظر إليّ لارشدك الى مَن تبحث عنه بشوق ولهفة ، واعرّفك بذاك الذي أرسلك الى هنا » ٠٠ فينظر الى وجه الفضاء المكفهر وهو يتقطّر رحمة ! ويستمع الى دويّه المخيف المرهب وهو يحمل رحيق البشرى ! فيرى ان :

(السحاب) الذي علّق بين السماء والأرض يسقي روضة الارض سقياً يتفجّر حكمة ورحمة ، ويمدّ سكنتها بالماء الباعث للحياة ، ملطّفاً به شدة الحرارة (أي شدة ضرام العيش) ، ويدرك توأ أينما كانت الحاجة ٠ ومع ان ذلك السحاب الثقيل الضخم يقوم بوظائف كثيرة أمثال هذه ، فانه يختفي ويتبدد فوراً بعد ان ملأ أرجاء الجو ٠ فتنسحب جميع أجزائه لتخلد الى الراحة ، فيتوارى عن الانظار دون ان يترك أثراً يمثل ظهور واختفاء الجيش المنظم طبقاً لأوامر فورية ، ولكن ما ان يتسلّم أمر « هيا لانزال المطر » الاّ ويجتمع ويملأ الجو في ساعة بل يغمره في دقائق ، ويتهيأ متأهباً كالجندي المنتظر أمر القائد !

ثم ينظر ذلك السائح الى (الرياح) التي تجول في الجو فيرى : ان الهواء يستخدم في وظائف كثيرة ، في منتهى الحكمة والكرم استخداماً كأن كل ذرة من ذرات ذلك الهواء الجامد ـ وهي لا تملك شعوراً ـ تسمع وتعي ما يلقى اليها من الأوامر الصادرة من سلطان هذا الكون ٠ فتؤدي خدماتها بقوة ذلك الآمر وهيمنته وتنفذها بكل انتظام ودقة دون أن تتوانى في شيء

منها كاستنشاق جميع أحياء الأرض ، أو نقل الأصوات أو المواد الضرورية لنوى الحياة كالحرارة والضوء والكهرباء ، أو التوسط لتلقيح النباتات أو ما شابهها من الوظائف الكثيرة ، فهي تستخدم بجميع هذه الخدمات من قبل يد غيبيةاستخداماً في منتهى الشعور ، والعلم ، والحيوية •

ثم ينظر الى (المطر) ، فيرى : أن تلك القطرات اللطيفة البراقة العذبة التي ارسلت واغدقت من خزينة الرحمة الغيبية ، تزخر بهدايا رحمانيـة ووظائف غزيرة حتى كأن الرحمة المهداة قد تجسّدت منصبة من عيـون الخزينة الربانية على صورة تلك القطرات المتهاطلة ••• ولهذا أطلق على المطر اسم « الغيث » •• و « الرحمة » •

ثم ينظر الى (البرق) ويصغي الى (الرعد) ، فيرى أنهما يستخدمان في امور بالغ الاعجاب والغرابة •

فيرجع بَصَرهُ الى عقله ، ويسارر نفسه قائلاً : ان هـذا السحاب الجامد الخالي من الشعور، والمنفوش كالعهن ، لاشك أنه يجهلنا ولا يعرفنا، ولا يمكن ان يسعى بنفسه لامدادنا رأفة بنا ورقة لحالنا • ولا يمكن أن يظهر بادياً في السماء ويختفي منقشعاً بدون أمر ، بل لابد انه يسـعى في وظيفته وفق أمر صادر من آمرٍ قدير مطلق القدرة ، ورحيمٍ مطلق الرحمة ، حيث يختفي دون ان يعقب ، ومن ثم يظهر فجأة ، متسلماً مهام عملـه ، فيملأ عالم الجو ويفرغه بين الفينة والفينة تنفيذاً لأمر سلطان متعال فعال ذي جلال فيخط على لوحة السماء دوماً ، بحكمة ، ويمحو بالاعفاء ، محولاً اياها الى « لوحة المحو والاثبات » والى صورة مصغرة « للحشر والقيامة » • اذ يركب السحاب متون الرياح بأمر من حاكم مدبّر ذي الطاف واحسان ، وذي اكرام وعناية ، حاملاً خزائن أمطار واسعة سعة الجبال وضخامتهـا مسعفاً بها مواضع من الارض محتاجة اليها ، وكأنه يرقّ لحالها فيبكي عليها بدموعه ويطلقها ضاحكة بالازهار والرياحين ، ويخفف من شدة لفحة الشمس

ويسقي بساتين الارض ومروجها ويغسل وجهها واديها ويطهرها من الاقذار ليشرق بالصفاء والرواء ٠

ثم يحاور ذلك المسافر الشغوف عقله قائلاً : ـ ان هذا الهواء الجامد الذي لا حياة له ولا شعور ، وهو في اضطراب دائم ، وهيجان لا يسكن ، وذا عواصف وأعاصير لا تهدأ ، تأتي الى الوجود وتبرز بسببه ـ وبصورته الظاهرة ـ مئات الألوف من الأعمال والوظائف والنعم والامدادات العامرة بالحكمة والرحمة والاتقان ، مما يثبت بداهة : انه ليست لهذه الرياح الدائبة ـ هذا الخادم الجوّال ـ حركة ذاتية ، فلا تتحرك بذاتها ابداً وانما يحركها أمر صادر من آمر قدير عليم مطلق ، وحكيم كريم مطلق ، وكأن كل ذرة من ذراته تفهم كل ما يبدر منها من عمل وتسمع ـ كالجندى المطيع ـ كل أمر صادر من لدن ذلك الآمر وتدركه فتنقاد اليه وتقوم بمهمة تنفس الأحياء جميعها وتساهم في ادامة حياتها ، وتشارك في تلقيح النباتات ونموها ، وتعاون في سوق المواد الضرورية لحياتها ، وسوق السحب وادارتها ٠ وسير السفن التي لا وقود لها وتمخيرها وسياحتها ، وتتوسط خاصة في ايصال الاصوات والمكالمات والاتصالات عبر امواج اللاسلكى والبرق والراديو ، وامثال هذه الخدمات العامة الكلية ، فضلاً عن ان ذرات الهواء مركبة من مواد بسيطة كالازوت ومولد الحموضة (الاوكسجين) ومع تماثل بعضها لبعض فلا أراها الا أنها تستخدم بيد حكيمة وبانتظام كامل في مئات الألوف من انماط المصنوعات الربانية ٠

لذا حكم السائح قائلاً : حقاً مثلما صرّحت به الآية الكريمة :

« **وتصريف الرياح والسّحاب المسخر بين السماء والأرض** » (البقرة/١٦٤) ٠ فان الذي اجرى أمره على الهواء واستعمله في خدمات ووظائف ربانية غير محدودة ، بتصريف الرياح ، وفي أعمال رحمانية غير محدودة ، بتسخير السحاب ، وأوجد الهواء وأنشأه على تلك الصورة ، ليس

إلا رباً واجب الوجود ، قادراً على كل شيء ، وعالماً بكل شيء ذا جلال واكرام .

ثم يرجع بنظره الى (الغيث) فيرى : انه مثقل بمنافع بعدد شآبيبه ويحمل تجليات رحمانية بعدد زخاته ، ويظهر حِكماً بقدر رشحاته ، ورأى أن تلك القطرات العذبة اللطيفة المباركة تُخلق خلقاً في غاية الانتظام وفي منتهى الجمال والبهاء وبخاصة البرد الذي يرسل – وينزل حتى صيفاً – بانتظام وميزان ، بحيث أن العواصف والرياح العاتية – التي تضطرب من هولها الكتل الضخمة الكثيفة – لا تخل في موازنة ذلك البرد ولا انتظامه ، ولا تجعله كتلاً مضرة جمعاً بين حبّاته ! . فهذا الماء الذي هو جماد بسيط لا يملك شعوراً ، يُستخدم في امثال هذه الأعمال الحكيمة ، وبخاصة استخدامه في الاحياء والتروية ، وهو المركب من مادتين بسيطتين جامدتين خاليتين من الشعور ؛ هما مولد الماء ومولد الحموضة – الهيدروجين والاوكسجين – الا انه يستخدم في مئات الآلاف من الخدمات والصنائع المختلفة المشحونة بالحكمة والشعور .

فهذا الغيث اذاً ما هو الا رحمة متجسمة بعينها ، ولا يتم صنعه الا في خزينة الغيب لرحمة « الرحمن الرحيم » ، وهو بنزوله وانصبابه على الأرض يفسّر عملياً وبوضوح الآية الكريمة :

« وهو الذي يُنزّل الغيث مِن بعدما قنطوا وينشر رحمته » (الشورى/٢٨) .

ثم يصغي ذاهلاً الى (الرعد) وينظر مندهشاً الى (البرق) ، فيرى ان هاتين الظاهرتين الجويتين العجيبتين مثلما أنهما تفسران تماماً الآيتين الجليلتين :

« ويسبّح الرّعد بحمده » (الرعد/١٣) .

« يكاد سنا برقه يذهب بالابصار » (النور/٤٣) .

فانهما تخبران كذلك عن قدوم الغيث فتبشران المعوزين الملهوفين ٠

نعم ، ان انطاق الجو المظلم بغتة بصيحة هائلة تزمجر وتجلجل ، وملء الظلام الدامس بنور يكاد يذهب بالابصار وبنار ترعب كل موجود واشعال السحب العظيمة ـ كالجبال ـ المنفوشة كالعهن ، المحملة بالبرد والثلج والماء ... وما شابهها من هذه الاوضاع الحكيمة الغريبة ؛ لتنبه الانسان الغافل وتوقظه ، وتلوح بالدرة على رأسه المخفوض قائلة :

يا هذا .. ارفع رأسك وانظر الى غرائب الصنعة وبدائع الخلقة للفعال القدير الذي يريد ان يعرف نفسه لعباده ، فكما انك لست طليقاً سائباً مفلوت الزمام في هذا الوجود ، فلن تكون هذه الحوادث سدى ولا عبثاً ، بل كل منها تساق الى وظائف حكيمة بخضوع واستسلام وكل منها يستخدم من لدن رب مدبر حكيم ٠

وهكذا يسمع هذا السائح الولوع شهادة سامية جلية لحقيقة مركبة من تسخير السحاب ، وتصريف الرياح ، وانزال الغيث ، وتدبير الظواهر الجوية ، فيقول : آمنت بالله ..

وقد أفادت(١) المرتبة الثانية من المقام الاول مشاهدات هذا السائح في الجو كالآتي :

> « لا إله إلا الله الواجب الوجود الذي دل على وجوب وجوده : الجو بجميع ما فيه ، بشهادة عظمة احاطة حقيقة : التسخير ، والتصريف ، والتنزيل ، والتدبير ، الواسعة المكملة بالمشاهدة

---

(١) [تنبيه] :

كنت أريد ان اوضح المراتب الثلاث والثلاثين من مراتب التوحيد المذكورة في « المقام الأول » الا ان عدم سماح وضعي في الوقت الحاضر جعلني مضطراً الى الاكتفاء ببراهينها المختصرة جداً وترجمة معانيها فحسب ٠ وحيث ان ثلاثين رسالة من رسائل النور بل مائة رسالة منها ٠ قد بينت ـ كل رسالة ـ قسماً من تلك المراتب الثلاث والثلاثين مع دلائلها بأساليب مختلفة ؛ لذا أحيلت التفاصيل اليها ٠

٣

ثم أن ذلك السائح المتفكر ، المعتاد على السياحة الفكرية ، هتفت به كرة الأرض بلسان حالها ، قائلة : « لِمَ تجول في الهواء وتدور في ارجاء السماء والفضاء ؟ هلمّ اليّ لأعرفك بالذي تبحث عنه ٠٠٠ تأمل فيما أقوم بـه وازاول من وظائف ٠٠ وأقـرأ ما هو مكتوب في صحائفي » ٠ فأخذ السائح ينظر ، فيرى :

ان الأرض ـ كالمولوي العاشق ـ تخط بحركتيها في أطراف ميـدان الحشر الأعظم دائرة تحصل بها الأيام والسنون والفصول ، وهي كسفينة ربانية عظيمة حاملة لاكثر من مائة ألف نوع من أنواع ذوي الحياة مع جميع أرزاقها ومتطلباتها المعاشية ، فتمخر عباب الفضاء وتطوف في رحلة سياحية وتجوال حول الشمس بكمال الموازنة والانتظام الاتم ٠

ثم ينظر الى صحائفها فيرى : ان كل صحيفة منها تعرّف ربها بآلاف آياتها ٠٠ ولكن لمّا لم يجد متسعاً من الوقت لمطالعة الصحائف كلها ، فقد اقتصر بالنظر الى صحيفة واحدة منها فقط ، وهي صحيفة تجسد ايجـاد ذوي الحياة وادارتها في فصل الربيع ٠ فشاهد ان افراداً غير محدودين لمائة ألف من الأنواع تنفتح صورها وتنبسط من مادة بسيطة بمنتهى الانتظام ، وتُربّى بمنتهى الرحمة ، وتنشّر في الارجاء بمنتهى السعة ـ فيمنح بذور قسمٍ منها جُنيحات رقيقة للطيران ـ وانها تدار بمنتهى التدبير ، وتعيّش وتغذى بمنتهى الشفقة والرأفة ، وتُؤمّن ارزاقها الوفيرة المتنوعة اللذيذة الطيبة بمنتهى الرحمـــة والارزاق ، فتوافى من غير شيء ، ومـــن تراب يابس ، ومن جذور صلبة ـ كالعظام ـ ومن بذور متماثلة ، ومن قطرات

ماء متشابهة ، وتبعث الى ذوي الحياة كل ربيع ـ كحمولة قطار مشحون ـ مائة ألف نوع ونوع من الاطعمة واللوازم بكمال الانتظام والاتساق من خزينة الغيب وبخاصة ارسال اللبن الخالص اللذيذ الدفاق من ينابيع أثداء الوالدات الرؤوم الملفعة بالشفقة والرحمة والحكمة هداياً للصغار والاطفال ... كل ذلك يثبت بداهة انه تجلٍ ـ بمنتهى التربية والرأفة ـ من تجليات رحمة الرحمن الرحيم وإحسانه العميم .

والخلاصة : لقد فهم السائح بمشاهدة هذه الصحيفة الحياتية للربيع الجميل ، انها صورة من صور الحشر والنشور بمئات الآلاف من النماذج والنظائر ، فهي تفسّر عملياً تفسيراً محسوساً رائعاً الآية الكريمة :

فانظر الى آثار رحمت الله كيف يُحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير (الروم/٥٠) .

والآية نفسها تفيد باعجاز : المعاني الواردة في هذه الصحيفة .

وفهم ما تردده كرة الارض بجميع صحائفها وبنسبة جسامتها وقوتها من : **لا إله الا هو** .

وهكذا لأجل بيان شهادة مختصرة ، لوجه واحد فقط ، من عشرين وجهاً ، من وجوه صحيفة واحدة ، من الصحائف الواسعة لكرة الأرض ، التي تربو على عشرين صحيفة ، ولاجل بيان ما أفادته مشاهدات ذلك السائح في سائر الوجوه والصحائف : ذكر في المرتبة الثالثة من المقام الاول:

« لا إله إلاّ الله الواجب الوجود الذي دلّ على وجوب وجوده في وحدته : الارض بجميع ما فيها ، وما عليها ، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة : التسخير ، والتدبير ، والتربية ، والفتاحية وتوزيع البذور والمحافظة والادارة ، والاعاشة ، لجميع ذوي الحياة ، والرحمانية والرحيمية العامة الشاملة المكدلة بالمشاهدة » .

٤

ثم أصبح ذلك المسافر المتفكر كلما قرأ صحيفة قوي ورسخ ايمانه ـ الذي هو مفتاح السعادة ـ وزادت معرفته بالله ـ التي هي مفتاح المدارج المعنوية ـ وانكشفت لبصيرته درجة أخرى من حقيقة الايمان بالله ـ الذي هو الأساس القويم لجميع الكمالات ومنبعها الثر العذب ـ ومع انه قد وعى دروساً بليغة وتامة من السماء ، والجو ، والأرض بات يطلب المزيد كلما منحته تلك الصحائف أذواقاً معنوية لطيفة ، ولذائذ روحية كثيرة ، مثيرة شغفه ، منبهة ولعه بشدة قائلاً : هل من مزيد ، واذا به يسمع صدى اذكار البحار والانهار العظيمة التي تتدفق خشوعاً وشوقاً ، فينصت الى همس أصواتها الحزينة اللذيذة ، وهي تقول بلسان الحال والمقال : « ألا تنظر إلينا ؟ ألا تطالعنا ؟ . » فينظر بلهفة حائرة ويرى :

ان (البحار) التي تتماوج بحيوية وتتلاطم بشدة دوماً ، والتي من شأنها التشتت والانسكاب والاغراق ، قد أحاطت بكرة الأرض فهما تُسيَّران معاً في منتهى السرعة وتجريان في سنة واحدة ضمن دائرة مقدارها خمس وعشرون ألف سنة ، وعلى الرغم من كل هذا فهي لا تتفرق أبداً ولا تنسكب مطلقاً ولا تستولي على جارتها اليابسة ، فلابد من انها تسكَّن وتسيَّر وتحفظ بأمر من له القدرة المطلقة ، والعظمة المطلقة .

ثم ينظر الى (جوف البحر) فيرى علاوة على لآلئه المشعة التي هي في غاية الجمال والزينة والانتظام . فان اعاشة آلاف الحيوانات المتنوعة وادارتها وتعيين مواليدها ووفياتها تجري في منتهى الانتظام والاتقان ، وأن مجيء ارزاقها ونشوء اقواتها من رمل بسيط ومن ماء اجاج ، ميسور وكامل

الى حدّ يثبت بداهة انه لا يتم الاّ بادارة القدير ذي الجلال ، واعاشة الرحيم ذي الجمـال •

ثم ان ذلك المُسافر ينظر الى (الانهار) فيرى ان ما فيها من المنافع والمصالح وما لها من الخدمات والوظائف وما تنتجه من مصاريف وما ترده من موارد هي بحكمة واسعة ، وبرحمة عظيمة الى حدّ ، تثبت بداهة : ان جميع الجداول والترع والينابيع والسيول والانهار العظيمة تنبع وتجري من خزينة الرحمن ذي الجلال والاكرام • بل انها تُخزن وتدّخر ادخاراً خارقاً للمألوف ، فتصرف وتجري جرياً فوق المعتـاد حتى ورد في الحديث الشريف ما معناه أن : أنهاراً اربعة تجرى من الجنة • بمعنى ان جريـان هذه الانهار ؛ هو فوق حسابات الاسباب الظاهرة بكثير ، لذا فهي لا تجري إلاّ من خزينة جنة معنوية لا ينضب ومن فيض منبع غيبي لا ينفد •

فمثلاً : هذا نهر النيل الذي حوّل صحراء مصـر القاحلة الى جنـة الدنيا • فهو يجري كبحر صغير دون نفاد ، وينبع من جبل واقع في الجنوب يدعى جبل القمر ، فلو جُمّعت صرفياته لستة أشهر وجُمّدت ، لحصل ما هو أعظم من ذلك الجبل ! والحال ان ما خصّص لـه من مكان للخـزن لا يبلغ سُدس ذلك الجبل • اما وارداته فقليلة ضئيلة ، حيث ان شحة الامطار ، وشدة حرارة المنطقة ، وتعطش الارض ، كل ذلك مجتمعاً لا يفسح مجالاً للخـزن الاّ للقليـل ، ولا يسـمح للمحافظة على ميزان وارداتـه وصرفياته ؛ لذا قد روي أنه يجري من « جنة » غيبية هي فوق القوانـين الأرضية المعتادة • فأفادت تلك الرواية حقيقة لطيفة ذات مغزى عميق جداً •

وهكذا رأى السائح شهادة واحدة ، وحقيقة واحـدة ، مـن آلاف الشهادات والحقائق التي هي واسعة سعة البحار نفسها وفهم ان جميعهـا تردد معـاً بالاجماع ، وبقوة عظمة البحـار : **لا إله إلا هو** ، وبرز أمامـه شهود بعدد مخلوقات البحار على صدق هذه الشهادة •

ولبيان شهادات البحار والانهار جميعها ، أفادت المرتبة الرابعة من المقام الاول ما يأتي :

« لا إله إلا الله الواجبُ الوجودِ الذي دلّ على وجوبِ وجودِهِ في وحدته : جميع البحار ، والانهار ، بجميع ما فيها ، بشهادةِ عظمةِ احاطةِ حقيقة : التسخير ، والمحافظة ، والادّخار ، والادارة الواسعة المنتظمة بالمشاهدة »

* * *

٥

ثم تدعو الجبال والصحارى ذلك المسافر المستغرق في السياحة الفكرية قائلة : « ألا تقرأ صحيفتنا أيضاً ؟ » .. فهو بدوره يحدق النظر ، ويرى :

ان وظائف الجبال الكلية ، وفوائدها العامة هي من العظمة والحكمة مما يُحير العقول .

فمثلاً : بروز الجبال واندفاعها من الارض بأمر رباني يهدىء هيجان الارض ويخفف من غضبها وسخطها وحدّتها الناجمة من تقلباتها الباطنية ، ويدعها تتنفس مستريحة بفوران تلك الجبال ومن خلال منافذها ، فتتخلص بذلك من الزلازل المهلكة والتصدّعات المدمّرة فلا تعد تسلب راحة الآمنين من سكنتها . وكما يُنصَب على السفن الاعمدة والاوتاد حفاظاً على توازنها ووقايتها من التزعزع والغرق ، كذلك الجبال هي أوتاد ـ ذات خزائن ـ لسفينة الارض تقيها من الزلزال وتثبتها وتحفظ توازنها ، وقد بيّن القرآن الكريم هذا المعنى في آيات كثيرة منها :

والجبال أوتاداً (النبأ ـ ٧) .
والقينا فيها رَواسي (الحجر ـ ١٩)
والجبال أرساها (النازعات ـ ٣٢)

ومثلاً : ان ما في جوف الجبال من أنواع الينابيع والمياه والمعادن والمواد والأدوية التي يحتاج الى كل منها ذوو الحياة ، قد أدخرت بحكمة ، وأحضرت بكرم ، وخزنت بتدبير ، بحيث تثبت بداهة ان هذه الجبال انما

هي خزائن ومستودعات إدخار تحت أمر وخدمة القدير الذى لا نهاية لقدرته ، والحكيم الذى لا نهاية لحكمته . فيدرك السائح هذا ، ويقيس على هاتين الجوهرتين ما يليهما من وظائف الجبال والصحارى وحِكَمهما ـ التي هي بضخامة الجبال وسعة الصحارى ـ فيرى :

أن الجبال والصحارى تشهدان ، وتوحّدان بـ **لا إله إلا هو** بلسان جميع حِكَمهما وبلغة جميع وظائفهما وبخاصة ادخارهما للاحتياطي من المواد ؛ وأن تلك الشهادة والتوحيد هما من القوة والرسوخ ما للشم العوالي ، وهما من الشمول والسعة ما للقفار والصحارى ، فيردد اللسان بخشوع : آمنت بالله .

وهكذا ذكر في المرتبة الخامسة من المقام الأول لبيان هذا المعنى ما يأتي :

« لا إله إلاّ الله الواجب الوجود الذي دلّ على وجوب وجوده : جميع الجبال والصحارى ، بجميع ما فيها ، وما عليها ، بشهادة عظمة احاطة حقيقة : الادّخار ، والادارة ، ونشر البذور ، والمحافظة ، والتدبير الاحتياطيّة الربّانيةِ الواسعة العامةِ المنتظمة المكمّلة بالمشاهدة » .

* * *

٦

وبينما كان ذلك المسافر يجول بفكره في الجبال والصحارى ، انفتح أمام فكره باب **عــالم الاشـجار والنباتــات** يدعــوه قائلاً : « هلمّ الينــا وَجُل في رياضنا واقرأ سطورنا » ٠٠ فدخل ورأى :

ان الاشجار والنباتات قــد عقــدت مجلساً فخماً رائعــاً للتهليــل والتوحيد ، وشكّلت حلقة مهيبة للذكر والشكر ٠ ففهم من ألسنة أحوالها كأنها تلهج معاً ، وتردد بالاجماع : **لا إله إلاّ هو** ، لما رأى من ثلاث حقائق كبرى كليّة تدلّ على ان جميع الاشجار المثمرة ، وجميع النباتات المزهرة تؤدي شهادتها مسبّحة وتقول معاً بالألسنة الفصيحة لأوراقها الموزونة ، وبالكلام الجزيل لأزهارها الجميلة ، وبالكلمات البليغة لأثمارها المنتظمة :
لا إلــه إلا هــو

اولاها : حقيقة الانعام والاكرام المقصودين ، والاحسان والامتنــان الاراديين ٠ التي يُحسُّ معناها إحساساً ظاهراً في كل نبــات وشــجر ٠ أي ان كل نبــات وشــجر مشــمول بعناية الانعــام ملفع بارادة الاكرام ، فالاحسان غرض هذه الارادة والامتنان هدف من اهداف كرمها الفياض ٠ وهي حقيقة واضحة وضوح ضوء الشمس في الكل أيضاً ؛ اذ الكل مغمور في الانعام والاكرام مغموس بافضال الاحسان والامتنان ٠

ثانيتهــا : حقيقــة التمييز والتفريق المقصودين بحكمــة والتزيين والتصوير الاراديين برحمة ، وهي واضحة وضوح النهار ـ حقيقةً ومعنىً ـ فالتمييز بين تلك الأنواع والأفراد غير المحدودة غرض مقصود ، والاختلاف والتباين بينها حكمة مطلوبة ، ولمسات التجميل والتحسين رحمة مرادة ،

وهذه الحقيقة واضحة وضوحاً لا يدع مجالاً قط لنسبتها الى الصدفة ، مما يُظهر عياناً أنها آثار الصانع الحكيم ونقوشه البديعة ٠

ثالثتها : حقيقة فتح صور المصنوعات غير المحدودة ، بمئات الآلاف من الانماط المختلفة والاشكال المتنوعة فتحاً من حبوب معدودة متشابهة ، ومن نوى محدودة متماثلة واستنباتها في غاية الانتظام والميزان ، وبمنتهى الزينة والجمال ، رغم انها بسيطة جامدة ومختلطة ببعضها ، ففتح صور كل فرد من أفراد تلك الأنواع المتباينة ـ التي تربو على مئتي ألف نوع ـ كل على إنفراد ، بانتظام كامل ، وبموازنة تامة ، وبحيوية وحكمة ، وبدون خطأ ، لهو حقيقة ساطعة جلية أسطع من الشمس ٠٠٠ ففهم السائح ان هناك شهوداً ودلائل اثبات على تلك الحقيقة بعدد أزهار الربيع ، وبعدد أثماره وبعدد أوراقه وموجوداته فعبّر عمّا جاش في قلبه من معان كريمة فقال : **الحمد لله على نعمة الايمان**

ولبيان هذه الحقائق والشهادات ذكرت المرتبة السادسة من المقام الأول كالآتي :

« لا إله إلا الله الواجبُ الوجودِ الذي دَلّ على وجوب وجودهِ في وحدته : اجماع جميع أنواع الاشجار والنباتات ، المسبّحات الناطقات : بكلمات أوراقها الموزونات الفصيحات ، وأزهارها المزيّنات الجزيلات، واثمارها المنتظمات البليغات، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة : الانعام ، والاكرام ، والاحسان ، بقصدٍ ورحمةٍ ٠ وحقيقة : التمييز ، والتزيين ، والتصوير ، بإرادةٍ وحكمةٍ ، مع قطعية دلالة حقيقة فتح جميع صورها الموزونات المزيّنات المتباينة المتنوعة غير المحدودة ، من نَويّات وحباتٍ متماثلةٍ متشابهة محصورة معدودةٍ » ٠

٧

وبينما كان السائح الشغوف ــ الذي ازداد بالسمو ذوقاً وشوقاً ــ عائداً من تلك السياحة الفكرية مبتهجاً بلذة وقوفه على الحقيقة ، وعثوره على جنات الايمان ، راجعاً من بستان الربيع ، حاملاً باقة كبيرة واسعة ــ من أزهار المعرفة والايمان ــ سعة الربيع نفسه ، اذا بباب عالم الطيور والحيوانات ينفتح ازاء عقله التواق للحقيقة ، وفكره المشتاق للمعرفة ، تدعوه تلك الطيور والحيوانات بمئات الألوف من الاصوات المتباينة ، والألسنة المختلفة ، للدخول الى ذلك العالم الفسيح ، وترحب بمقدمه الى عالمها ... فدخله ، ورأى :

ان جميع الطيور ، وجميع الحيوانات ، بأنواعها ، وبطوائفها ، وأممها ، كافة تذكر متفقة : **لا إله إلا هو** بلسان حالها ومقالها ، حتى لكأن سطح الأرض مجلس ذكر مهيب ، ومجمع تهليل عظيم ، ورأى أن كلاً منها بحد ذاته بمثابة قصيدة ربانية تترنم بآلاء الربوبية ، وكلمة سبحانية ناطقة بالتقديس لبارئها ، وحرف رحماني ذي مغزى ينم عن الرحمة الالهية ؛ فالجميع يثنون على خالقهم ، ويصفونه بالحمد والثناء ، وكأن حواس تلك الطيور والحيوانات ومشاعرها واعضائها ، وآلاتها ، واجهزتها ، وقواها ، كلمات موزونة منظومة ، وكلام فصيح بليغ ... فشاهد السائح في ذلك ثلاث حقائق عظيمة محيطة ، تدل دلالة صادقة على ان تلك الطيور والحيوانات تؤدي شكرها تجاه خلاقها ورزاقها ، وتشهد على وحدانيته سبحانه بتلك الكلمات ، وبذلك الكلام .

اولاها : هي حقيقة الايجاد والصنع والابداع ، أي حقيقة الاحياء ومنح

الروح ، **التي لا يمكن نسبتها مطلقاً الى الصدفة العشواء** ، والقوة العمياء ، والطبيعة الصماء ؛ اذ **هي ايجاد من عدم يقع بحكمة** ، **وابداع مقرون باتقان**، **وخلق مصحوب بارادة** ، **وانشاء مبنى على علم** ، **وهي** تظهر بجلاء تجلي « **العلم والحكمة والارادة** » **بعشرين وجهاً** ، **وهي** برهان باهر على وجوب وجود « **الحي القيوم** » وشاهد حق على صفاته السبعة الجليلة وآية صدق على وحدانيته جل وعلا ، أي أن حقيقة الاحياء تدفع الى الوجود شهود إثبات بعدد ذوي الأرواح كلها .

ثانيتها : حقيقة التمييز والتزيين والتصوير التي تتضح من خلال تلك المصنوعات غير المحدودة التي يختلف بعضها عن بعض بعلامات فارقة متميزة في الوجوه ، وبأشكال مزينة جميلة متباينة ، وبمقادير موزونة دقيقة مختلفة ، وبصور منتظمة منسقة . فهي حقيقة قوية عظمى بحيث : أنه لا يمكن ان يمتلك هذا الفعل المحيط الذي يُبرز عياناً ألفاً من الحِكَم والخوارق سوى القادر على كل شيء ، والعالم بكل شيء ، وليس هناك إمكان أو احتمال آخر قط .

ثالثتها : فتح صور تلك الحيوانات غير المحدودة بمئات الآلاف من الأشكال والأنماط ، من بيوض وبويضات متماثلة معدودة ، ومن قطرات محدودة ، متشابهة أو مختلفة بفارق طفيف ، ففتح تلك الصور ـ التي هي بحد ذاتها معجزة الحكمة ـ بانتظام كامل ، وموازنة تامة ، دونما خطأ ولا زيادة أو نقصان ، انما هو حقيقة ساطعة باهرة تستقي نورها من دلائل وأسانيد بعدد الحيوانات جميعها .

وهكذا شاهد السائح عالم الطيور والحيوانات وتلقى درساً كاملاً من دلالة هذه « الحقائق الثلاث » المتفقة ، دلالة واضحة على ان جميع أنواع الحيوانات تشهد قائلة معاً : **لا إله إلا هو** حتى غدت الارض كأنها انسان

ضخم جداً ـ تذكر لا إله إلا هو بنسبة كبرها وضخامتها فتملأ من شدتهـا وقوتها قبة السماء حتى يسمعها أهل السماوات ٠

وقد ذكر في المرتبة السابعة من المقام الاول لبيان هذه الحقائق بمـا يأتـي :ـ

« لا إلـه إلاّ الله الواجبُ الوجودِ الذي دلّ على وجوب وجوده في وحدته : إتفـاقُ جميـع أنـواعِ الحيوانات، والطيور ، الحامدات الشاهدات بكلمات حَواسّها ، وقواهـا ، وحسـياتها ، ولطائفهـا ، الموزونات المنتظمات الفصيحات ، وبكلمات اجهزتها وجوارحها ، واعضائها ، والاتها المكمّلة البليغات ، بشهادة عظمة إحاطـة حقيقة الايجـاد والصّنع ، والابداع ، بالارادة ، وحقيقة : التمييز والتزيين ، بالقصدِ ٠ وحقيقة : التقدير والتصوير ، بالحكمة مع قطعيةِ دلالة حقيقة : فتح جميع صورها المنتظمة المتخالفـة المتنوّعـة غـير المحصورةِ من بيضاتِ وقطراتِ متماثلةٍ متشابهة محصورة محدودة » ٠

* * *

٨

ثم أراد هذا السائح المتأمل ان يدخل عالم الانسان ودنيا البشر كي يمضي صعداً في مراتب غير محدودة للمعرفة الالهية ويرقى درجة أعلى في أذواقها ، ومنزلة أسمى في أنوارها غير المتناهية ، وعندها دعته الى الدخول صفوة البشر أولاً وهم : **الانبيـاء عليهم السلام** ٠ فدخل ومضى يسبر غور الازمان قبل كل شيء فرأى :

ان جميع الأنبياء عليهم السلام وهم خيرة نوع البشر وأكملهم قاطبة ، يذكرون بلسان واحد ويرددون معاً بالاجماع **لا إله إلا هو** وهم جميعاً يدعون الى التوحيد الخالص بقوة ما لا يُحد من معجزاتهم الباهرة المصدّقة لهم ولدعواهم ، ورأى انّهم جميعاً يدعون البشرية الى الايمان بالله لاخراجها من مرتبة الحيوانية ، ورفعها الى درجة المَلَك ، لذا فقد جثا السائح على ركبتيه بأدب جم وتوقير عظيم في أروقة تلك المدرسة النورانية ، ورأى أن بين يدي كل من اولئك الائمة الهداة الاعلام للبشرية معجزات وخوارق هي علائم تصديق لهم من لدن رب العالمين سبحانه ، وانه قد تكونت طائفة عظيمة وأمة غفيرة مصدّقة من البشر ودخلت حظيرة الايمان بتبليغ كل منهم ، لذا تمكن السائح من قياس مدى قوة ورصانة التوحيد ، تلك الحقيقة التي اتفق عليها واجمع أولئك الصادقون الذين يربون على المائة الألف ٠ وفهم كذلك مدى الخطأ الجسيم والجناية الكبرى التي يرتكبها أهل الضلالة المنكرون لتلك الحقيقة الراسخة التي تملك هذه القوة والتي صدّقها وأيّدها هذا الحدّ من المخبرين الصادقين وأثبتوها بمعجزاتهم التي لا تحد ، وادرك كذلك مدى ما يستحقونه من عذاب أليم خالد ، وعرف أيضاً مدى

صواب وأحقية الذين صدقوهم وآمنوا بهم فدخلوا حظيرة الايمان . فبدت أمامه بذلك مرتبة عظمى هائلة لقدسية الايمان وسمو التوحيد .

نعم ، انه مما سوى المعجزات التي لا حصر لها والتي هي تصديق فعلي من لدن الحق سبحانه وتعالى للأنبياء عليهم السلام ومما سوى الصفعات السماوية التي نزلت بالمنكرين المعارضين لهم التي أظهرت أحقيتهم وتأييد الله لهم ، ومما سوى كمالاتهم الشخصية وارشاداتهم السديدة الدالة على أنهم على حق أبلج ، ومما سوى قوة ايمانهم وغاية جديتهم ونهاية تجردهم التي تشهد كلها على صدقهم وصواب دعوتهم ، ومما سوى ما في أيديهم من الكتب والصحف المقدسة ، ومما سوى تلاميذهم غير المحدودين الذين بلغوا الحقيقة وارتقوا الى الكمال واهتدوا الى النور باتباعهم لهم ، مما يشهد ؛ أحقية سبيلهم وصواب طريقهم . فمما سوى كل هذا فان اجماع اولئك المبلّغين الصادقين في المسائل المثبتة لهو : حجة قاطعة على صدق الايمان وقوة عظيمة تعزز حقيقته الى درجة لن تستطيع اية قوة في العالم ان تضارعها . فهي حقيقة دامغة تنحسر امامها كل شبهة او ريب .

فعلم السائح حكمة كون التصديق بالرسل كافة ركن من أركان الايمان ، وكيف انه ينبوع دفاق ومصدر قوة عظيمة لايمانه ، فسرعان ما انكب يغترف من هذا الينبوع الثر .

وقد ذكر في المرتبة الثامنة من المقام الاول ما يفيد معنى الدرس المذكور لهذا السائح :

« لا إله إلاّ الله الذي دلّ على وجوب وجوده في وحدته : إجماع جميع الأنبياء ، بقوة معجزاتهم الباهرة ، المُصَدَّقَةِ المُصدِّقة » .

٩

وحينما كان السائح الطالب الذي تذوق مذاقات سامية من قوة الايمان وتنسم انسام الحياة صافية خالصة ، يرجع من مجلس الانبياء عليهم السلام ٠ دعاه أولئك الذين أثبتوا دعاوى الأنبياء بعلم اليقين واقاموا الحجج الدامغة على صدقها ، من العلماء المحققين والمجتهدين المتبحرين الذين يطلق عليهم جميعاً بـ **الاصفياء والصديقين** ، دعاه أولئك الى مدارسهم فدخل ورأى مجمعاً حافلاً يضم :

ألوفاً من العباقرة الافذاذ ، ومئات الالوف من المدققين من أهل العلم والتحقيق وهم يقيمون الدلائل وينصبون البراهين ويثبتون بتدقيقاتهم العميقة التي لا تدع أدنى شبهة « المسائل الايمانية المثبتة » وفي مقدمتها وجوب وجود الخالق سبحانه ووحدانيته ٠

نعم أن اتفاق أولئك العلماء الفطاحل ـ مع تفاوت استعداداتهم وتباين مواهبهم الفطرية واختلاف مسالكهم ـ على أصول الايمان وأركانه ، مستند كلٌ منهم على قوة براهينه ويقينها ، لهو حجة قاطعة لا يمكن لأحد معارضتها أو دحضها أو المماراة فيها الا اذا كان يملك ذكاءً أحدّ وأرقى من ذكاء أولئك الفحول ، وكان برهانه أقوى من براهين الجميع وحجته أبلغ من حجتهم جميعاً !! وهذا محال ٠ لذا لا يمكن مجابهتها الاّ بالجهل والتجاهل والانكار ، وبما لا يمكن اثباته من المسائل المنفية ٠ أو بالعناد وإغماض العين ازاء ذلك النور ٠ والحال ان من يغمض عينيه فقد جعل نهاره ـ هو بالذات ـ ليلاً ٠

ففهم السائح أن الانوار التي نشرها هؤلاء الاساتذة المتبحرون لهذه المدرسة السامية الشاسعة قد أضاءت نصف الكرة الأرضية خلال ألف من السنين . ووجد من هذا قوة معنوية هائلة تنصبّ في كيانه ، وتملأ جوانحه بحيث لو اجتمع أهل الانكار وأرباب العناد جميعاً لن يقدروا على زعزعتها ولو قيدَ شَعْرَةٍ .

وهكذا ذكرت اشارة مختصرة في المرتبة التاسعة من المقام الاول لما أقتبسه السائح في هذه المدرسة من دروس وعبر كما يأتي :

« لا إله إلا الله الذي دلّ على وجوب وجوده في وحدته : اتفاقُ جميع الأصفياءِ ، بقوة براهينهم الزاهرة المحققةِ المتفقةِ » .

* * *

١٠

وحينما كان يؤوب ذلك المسافر المتأمل من مدرسة العلماء ألحف عليه شوق ملح الى زيادة الايمان وانكشافه واستولت عليه رغبة عنيفة الى رؤية الأنوار والأذواق التي هي في طريق الارتقاء من درجة « علم اليقين » الى مرتبة « عين اليقين » فدعاه ألوف وملايين **الاولياء الصالحين المرشدين السامين** الذين سعوا الى الحقيقة ، وبلغوا الحق ، ووصلوا مرتبة « عين اليقين » بسموهم وعروجهم تحت ظل المعراج الأحمدي وعلى آثار قدمي الرسول صلى الله عليه وسلم في الجادة المحمدية الكبرى ، دعاه هؤلاء الى محل ذكر عظيم بهيج ، ومقام إرشاد قويم كريم ، يشع فيضاً ونوراً يملأ الأرجاء كلها ويتدفق نابعاً من تلاحق ما لا يحد من تكاياهم وزواياهم ومرابطهم فدخل ورأى :

ان أهل الكشف والكرامات هؤلاء يرددون بالاتفاق والاجماع **لا إله إلا هو** معلنين به وجوب وجود الرب سبحانه وتعالى ، ووحدانيته ، مستندين الى كشفياتهم وكراماتهم ومشاهداتهم .

نعم ، كما يستدل الى الشمس بألوان ضيائها السبعة ؛ فان حقيقة التوحيد كذلك يصدقها هؤلاء الافذاذ العارفون والجهابذة المنورون بالاجماع والاتفاق وهم يمثلون أهل الطرق المتنوعة الصادقة واصحاب المسالك المختلفة الصائبة وذوي المشارب العديدة الحقة الذين اصطبغوا بسبعين لوناً ، بل بعدد أسماء الله الحسنى ، من الالوان المنورة المتباينة ، والانوار الملونة المختلفة المتجلية على القلوب والافاق من نور شمس الأزل .
وقد شاهد السائح تجلى تلك الحقيقة الباهرة ؛ بعين اليقين . لذا رأى ان :

حقيقة يجمع عليها الانبياء عليهم السلام ، ويتفق على صدقها العلماء الأصفياء ، ويتوافق معها الأولياء الصالحون لهي حقيقة أسطع من ضوء النهار الدال على الشمس ·

وهكذا ذكرت في المرتبة العاشرة من المقام الاول اشارة مختصرة الى ما أخذه هذا المسافر من فيض من المرابط الصوفية وزواياهم :

« لا إله إلا الله الذي دلّ على وجوب وجوده في وحدته : إجماع الأولياء بكشفياتهم ، وكراماتهم الظاهرة المحققة المصدّقة » ·

* * *

١١

ثم ان ذلك السائح أراد بكل لطائفه وقواه أن يزداد رقياً وسمواً في قوة الايمان وانكشاف معرفته لله ، لعلمه بأن محبة الله الناشئة من الايمان بالله ، والمتفجرة من معرفته ، هي أعظم كمال إنساني وأهمه وأوسعه ، بل هي منبع جميع الكمالات وأساسها ؛ لذا رفع رأسه ناظراً في السماوات وخاطب عقلـه :

ما دامت الحياة هي أغلى شيء في الكون ، والموجودات كلها مسخرة للحياة ، وأن أثمن ذوي الحياة هم ذوو الروح ، وأرقى ذوي الأرواح هم ذوو الشعور ٠ وما دامت الكرة الأرضية ـ لأجل هذه المنزلة الرفيعة ـ تخلى في كل عصر ، وفي كل سنة ؛ وتملأ باستمرار ، تكثيراً لذوي الحياة ٠ فلا بد ـ ولا محالة ـ ان تكون لهذه السماوات العُلى المزينة سـكنتها وأهلوهـا المتلائمون معها من ذوي الحياة ، وذوي الارواح ، وذوي المشاعر ٠ حتى نقلت روايات متواترة تؤكد رؤية **الملائكة** والتكلم معهم منذ القديم ، كتمثل جبرائيل عليه السلام في صورة انسان وظهوره امام الصحابة في مجـلس الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ فقال السائح : ليتني أصل الى شرف رؤية أهل السماوات ، وليتني أقف على ما عندهم حول «حقيقة الايمان والتوحيد» لأن أهم شهادة في حق خالق الكون هي شهادتهم ٠٠٠ ولم يكد يتم حديثه حتى سمع فجأة كأن هاتفاً سماوياً يقول :

« ما دمت تريد أن تلتقي معنا ، وتسـتمع الى درسـنا ، فاعلم : ان المسائل الايمانية التي اُنزلت بوساطتنا الى جميع الأنبياء وفي مقدمتهم محمد عليه الصلاة والسلام بالقرآن الكريم ، قد آمنا بها نحـن مقدمـاً ، واعلم

كذلك : ان جميع الأرواح الطيبة منا ، والمتمثلة للانسان قد شهدت كلها بلا إستثناء وبالاتفاق على وجوب وجود خالق الكون ، وعلى وحدانيته ، وعلى صفاته القدسية • وان ما أخبرت به من أخبار كثيرة يوافق بعضه بعضا ، ويطابقه مطابقة تامة • فتوافق هذه الأخبار غير المحدودة ، وتطابقها دليل لك كالشمس » • فوعى السائح ما يقصدونه ، وتألق نور ايمانــــه وسطع ، حتى عرج صاعداً الى السماوات •

وهكذا ذكرت اشارة قصيرة لما أخذه هذا السائح من درس الملائكة في المرتبة الحادية عشرة من المقام الاول •

« لا إله إلاّ اللهُ الواجبُ الوجودِ الذي دَلَّ على
وجوب وجوده في وحدته : اتفـاق الملائكة المتمثلين
لأنظـار الناس ، والمتكلمين مـع خـواص البشـر،
باخبارهم المتطابقة المتوافقة » •

* * *

١٢-١٣

ثم ان ذلك المسافر المتلهف المشتاق ، بالدرس الذي تلقاه من ألسنة طوائف معينة ومن أحوالها ، في عالم الشهادة والجانب الجسماني والمادي منه ، أشتاق القيام بمزيد من السياحة والاسفار والتحري والبحث عن الحقيقة فتقدم الى مطالعة : ما في عالم الغيب وعالم البرزخ أيضاً . فانفتح أمامه باب **العقول المستقيمة المنورة والقلوب السليمة النورانية** ، اللتان لا تخلو منهما طائفة من طوائف البشر ، فالعقل والقلب هما بحكم نواة الانسان ولبّه وبفضلهما استطاع ان يصبح ثمرة الكون ، إذ يملكان من القدرة على الانبساط والاتساع ما يمكنهما ان يطويا العالم كله رغم صغرهما ، فرأى السائح :

ان القلوب والعقول برزخ إنساني بين عالمي الغيب والشهادة ، فالعلاقات والمعاملات بين ذينك العالمين ـ بالنسبة للانسان ـ تجري في تلك النقاط ؛ لذا خاطب عقله وقلبه معاً قائلاً : « ـ أقبلا ، **فان اقصر الطرق الموصلة الى الحقيقة هي من باب أمثالكما فهيا لنستفد بمطالعتنا العقول والقلوب المتصفة بالايمان ودراستنا كيفياتهما وألوانهما فهذا درس لا يؤخذ من الألسنة كما هو الحال في الطرق الاخرى** » . فباشر بقلب صفحات العقول وينشر صفحات القلوب ممعناً النظر مطيلاً الفكر ، فرأى :

ان جميع العقول المستقيمة المنورة تتفق في العقيدة الراسخة الواضحة في الايمان والتوحيد ، وتتطابق في اليقين الجازم والاقتناع المطمئن ، رغم التباين الواسع في استعداداتها والبعد والمخالفة بين مذاهبها . أي أنها استندت وارتبطت بعقيدة لا تتبدل ، ودخلت في حقيقة عريقة لا تنفصم ؛

لذا فان إجماع هذه العقول في الايمان ، والوجـوب ، والتوحيـد انما هو سلسلة نورانية لا تنقطع ، ونافذة واسعة وضّاءة مطلة على الحقيقة ٠

ورأى كذلك : ان جميع القلوب السليمة النورانية تتوافق فيما بينها في كشفياتها ومشاهداتها ــ التي هي ذات اتفاق واطمئنان وانجذاب ــ في أركان الايمان ، وتتطابق في التوحيد ، رغم تباعد مسالكها وتباين مشاربها٠

أي ان كل قلب من هذه القلوب النورانية عرش صغير جداً تستوى عليها المعرفة الربانية ، وهي مرآة جامعة لأنوار التجليات الصمدانية ، بما يقابل الحقيقة ويوصل اليها ، ويتمثل بها ، فهي اذاً نوافذ مفتوحة تجـاه شمس الحقيقة ٠ أي ان مجموع هذه القلوب يشكل معاً مرآة عظمى واسعة ــ كالبحر ــ أمام تلك الشمس ٠ وان اتفاق هذه القلوب والعقول واجماعها في وجوب وجوده سبحانه ، وفي وحدانيته لهو دليل أكمل ومرشـد أكبر لا يتحير ولا يحيّر ؛ اذ ليس هناك إمكان قط ولا إحتمال قطعاً ــ في أيـة جهة كانت ــ ان يخدع وهمٌ لا حقيقة له ، وفكرٌ لا يمت الى الحقيقة بصلة ، وصفةٌ لا أصل لها ، جميع هذه العيون البصيرة النافذة الحادة لهذه الكثرة الكاثرة من ذوي القلوب الصافية والعقول الرزينة ، وان يستمر هذا الخداع عبـر قـرون وبرسوخ تـام !!! أو أن يوقعهم جميعـاً في شباك التمويـه والغفلة !! ، فهل هناك من يجد احتمالاً كهذا غير من يحمل عقلاً فاسداً عفناً ؟! بل حتى اولئك السوفسطائيون الحـمقى الـذين ينكـرون الـكون يردّونه ولا يرضون به ! ٠

هكذا فهم السائح ، فقال منسجماً مع عقله وقلبه : **لا إله الا هو**

واشارة الى المعرفة الايمانية مما اسـتفاد هـذا السائح مـن العقول المستقيمة والقلوب المنوّرة ذكرت في المرتبة الثالثة عشرة من المقـام الاول ما يأتي :

« لا إله إلا الله الـواجب الوجـود الذي دلَّ على وجوب وجوده في وحدته : اجماع العقول المستقيمة المنوَّرة ، باعتقاداتها المتوافقة وبقناعاتها، ويقيناتها المتطابقة ، مـع تخالف الاسـتعدادات والمذاهب ، وكذا دلَّ على وجوب وجوده في وحدتـه اتفـاق القلوب السليمة النورانيـة ، بكشفيـاتها المتطابقة وبمشاهداتهـا المتوافقة ، مـع تبايـن المسـالـك والمشارب » .

* * *

١٤-١٥

ثم ان ذلك السائح الذي نظر الى عالم الغيب من قريب ، وتجوّل في عالمي العقل والقلب ، أخذ يطرق باب ذلك العالم بهذا النمط من التفكير :

« يا ترى ماذا يقول **عـالم الغـيب** ؟ » . إذ :

ما دمنا نرى في عالم الشـهادة الجسماني هـذا : انّ المحتجب وراء ستار الغيب سبحانه يعرّف نفسه لنا بهذا القـدر الهائل مـن مصنوعاته المزينة المتقنة ويسوقنا الى محبته بهذا القدر الذي لا يحصى من نعمه اللذيذة الطيبة ويخبرنا عن كمالاته الخفية بهذا القدر الزاخر من آثـاره الخارقة البديعة .. نعم ان الذي يعرّف نفسه ويحببها فعلاً وبلسان الحال الذي هو أبين من الكلام والتكلم ؛ لابد انه سيتكلم قولاً وتكلماً مثلما يتكلم فعلاً وحالاً ، معرّفاً نفسه ومحبباً ذاته .

لذا خاطب السائح نفسه قائلاً : علينا ان نعرفه سبحانه من مظاهر الوهيته وربوبيته في عالم الغيب . فغاص قلبه في الأعماق ورأى بعين عقله :ـ

ان حقيقة **الوحي الالهي** مهيمنة كل حين ـ بظواهر في غايـة القـوة والوضوح ـ على أرجاء عالم الغيب كافة . فتأتي الشهادة لوجوده وتوحيده سبحانه من لدن علاّم الغيوب . وهي شهادة الوحي والالهام وهي أقوى بكثير من شهادة الكائنات والمخلوقات ؛ إذ لا يدع سبحانه تعريف ذاته ، ولا دلائل وجوده ، ووحدانيته ، محصوراً في شهادة مخلوقاته وحدها . بل يتكلم كلاماً أزلياً يليق بذاته ، فلا حدّ ولا نهاية لكلام مَن هو حاضر وناظر بقدرته وعلمه في كل مكان . ومثلما يعرّفه معنى كلامه ، فان تكلّمه أيضاً يعرّفه بصفاته .

نعم ، ان تواتر مائة ألف من الأنبياء عليهم السلام واتفاقهم في جميع اخباراتهم الصادرة من الوحي الالهي ، ودلائل ومعجزات الكتب المقدسة والصحف السماوية التي هي الوحي المشهود وثماره ، والتي صدقتها الاكثرية المطلقة للبشرية واقتدت بها ، واهتدت بهديها ·· جعل السائح يفهم بداهة : أن الوحي حقيقة ثابتة لا مراء فيها ·

وفهم كذلك ان حقيقة الوحي تفيد خمس حقائق قدسية وتؤكدها وتنورها :

اولاها : ان التكلم وفق مفاهيم البشر وبمستوى عقليتهم هو الذي يطلق عليه بـ (التنزلات الالهية الى عقول البشر) · نعم ، ان الذي أنطق جميع ذوي الأرواح من مخلوقاته ، ويعلم ما يتكلمونه ، تقتضي ربوبيته ان يصب معاني كلامه الازلي في كلمات يتيسر للبشر ان يتلوها بين كلامهم ·

ثانيتها : أن الذي برأ الوجود معجزة ، وملأه بمعجزاته الباهرة لتفصح عنه وجعلها ألسنة ناطقة بكمالاته ، لابد أنه سيعرّف ذاته أيضاً بكلامه هو ·

ثالثتها : ان الذي يقابل فعلاً مناجاة الناس الحقيقيين وشكرهم ـ وهم خلاصة الموجودات وزبدتها ـ وأكثرهم حاجة واشدهم شوقاً ، وأرقهم لطفاً ، فان مقابلة تلك المناجاة والشكر بكلامه سبحانه هي من شأن الخلاّقية ·

رابعتها : ان صفة المكالمة التي هي ضرورة لازمة وظاهرة مضيئة لصفتي « العلم » و « الحياة » لابد أنها توجد بصورة محيطة وبسرمدية خالدة ، عند من له علم محيط وحياة سرمدية ·

خامستها : ان الذي فطر مخلوقاته على العجز والشوق ، والفقر والحاجة ، والقلق من العاقبة ، ومنحهم المحبة والعبودية حتى أصبحوا

يحسون حباً شديداً وشوقاً غامراً نحو معرفة مولاهم الحق ومالك امرهم ، ويشعرون حاجتهم الماسة الى قوة يستندون اليها ويأوون الى كنفهـا وهـم يتقلبون في فقر وعجز وتوجس من العقبى ، نعم ان الذي فطر مخلوقاتـه على هذا فمن مقتضى الوهيته سبحانه ان يشعرهم وجوده بتكلمه سبحانه.

وهكذا فهم السائح ان الدلائل التي تدل بالاجماع على وجود واجب الوجود ، ووحدانيته سبحانه في الوحي السماوي العـام المتضمن لحقائق « التنزل الالهي » ، و « التعرف الرباني » ، و « المقابلة الرحمانيـــة » ، و « والمكالمة السبحانية » ، و « الاشعار الصمداني » ، هي حجة كبرى ، وهي أقوى من شهادة الشمس على نفسها في رابعة النهار ·

ثم نظر الى حيث **الالهامـات** فرأى ان الالهامات الصادقة مـع انهـا تتشابه ـ من جهة ـ مع الوحي ، من حيث انها نوع من المكالمة الربانية · الا ان هناك فرقين :

اولهمـا : ان معظم الوحي الذي هو أسمى وأعلى من الالهام بكثير إنمـا يتم بوسـاطة الملائكـة ، بينمـا أغلب الالهـام يتم دون وسـاطة · ولايضاح ذلك نورد المثال الآتي :

من المعلوم ان هناك شـكلين من صور التخاطب واصدار الأوامـر للسلطان :

الاول : باسم الدولة وعظمتها وحاكميتها وسيادتها على الجميع · فيرسل أحد مبعوثيه الى أحد ولاته ، ويجتمع ـ أحياناً ـ معه ، ومن ثـم يبلّغ الأمر ، وذلك اظهاراً لعظمة تلك الحاكمية وأهمية ذلك الأمر ·

الثاني : باسمه الشخصي ، وليس باسم السلطنة ، ولا بعنـوان السلطان ، فيتكلم كلاماً خاصاً ، بهاتفه الخاص ، في أمر خاص ، وفي معاملة جزئية ، مع خادمه الخاص أو مع أحد رعيته من العوام ·

وكذلك كلام سلطان الأزل سبحانه وتعالى · فله كلام بالوحي والالهام الشامل ـ الذي يقوم بوظائف الوحي ـ يتكلم باسم رب العالمين ، وبعنوان خالق الكون · وله أيضاً طراز آخر من الكلام ، وبشكل خاص ، ومن وراء حجب وأستار ، مع كل فرد ، ومع كل ذي حياة ، حسب قابلياتهم ، وذلك لكونه ربهم وخالقهم ·

الفـــرق الثـاني : أن الوحـــي صـــاف ، ودون ظـــل ، خــاص للخواص · أما الالهام ؛ ففيه ظل ، واختلاط ألوان ، وهو عام وله أشكال متنوعة ومتفاوتة جداً ؛كالهامات الملائكة ، والهامات الانسان ، والهامات الحيوانات ، وهي بأنواعها المختلفة واشكالها المتباينة جداً ، تبين مـدى سعة كثرة الكلمات الربانية التي تربو على عدد قطرات البحار ··· ففهم السائح وجهاً من تفسير الآية الكريمة :

« قل لو كان البحرُ مِداداً لكلمات ربي لنفـد البحر قبل أن تنفـد كلمات ربي ·· » (الكهف/١٠٩) ·

ثم نظر الى ماهية الالهام يستبطن سره ويتعرف على حكمته وشهادته ، فرأى ان ماهيته ، وحكمته ، ونتيجته ، تتركب من أربعة أنوار :

النور الاول : انه مثلما يتودد الله سبحانه الى مخلوقاته عـن طريق افعاله فيهم الذي يُعرف (بالتودد الالهي) فان من مقتضيـات الودوديـة والرحمانية (اي كونه ودوداً ورحماناً) ان يتحبب اليهم ويتودد قـولاً وحضوراً وصحبة أيضاً ·

النـور الثاني : انه مثلما يستجيب سبحانه دعاء عباده بافعالـه · فان إجابته لهم قولاً أيضاً ـ من وراء الحجب ـ هو من شأن الرحيمية ·

النور الثالث : انـــه مثلما يمدّ سبحانه بالافعال استمداد مخلوقاته المصابين بالبلايا العسيرة والنوائب الشديدة واستغاثتهم وتضرعهم فان من

لازم الربوبية أن يؤنسهم ويبدد وحشتهم فيمدّهم بأقوال إلهامية هي في حكم نوع من كلامه ٠

النـور الرابع : انه مثلما يُشعِر سـبحانه فعـلاً وجوده وحضوره وحمايته لأرباب الشعور من خلقه ـ الذين هم في عجز وضعف شديدين ، وفي فقر واضطرار كبيرين ، وفي أشد الحاجة والشوق لمعرفة مالكهم وحاميهم ومدبرهم وحفيظهم ـ فانه من مقتضى رأفة الالوهية ، ورحمـة الربانية ، وضرورة لازمة لهما ، ان يُشعِر كذلك حضوره ومعيّته ووجوده لمخلوق معين ، بوجه خاص ، حسب قابليته ، بوساطة قسم من الالهامات الصادقة ، قولاً الى هاتف قلبه ، مما يعد في حكم نوع من المكالمة الربانية ٠

ومن ثم نظر الى شهادة الالهام فرأى انـه لو كانت للشمس حيـاة وشعورٌ ـ فرضاً ـ وكانت الألوان السبعة التي في ضيائها ـ فرضاً ـ سبع صفات لها لكان لها اذاً نمطٌ من التكلم ؛ باشعتها وتجلياتها التي في ضيائها٠ ففي هذه الحالة : فان وجود صورتها وانعكاسها في الأشياء الشفافة ؛ أي تكلمها مع كل مرآة عاكسة ، ومع كل شيء لماع ، ومع قطع الزجاج وحباب البحر وقطراته ، حتى مع الذرات الشفافة حسب قابلية كل منها ،٠٠٠ واستجابتها لحاجات كل منها ٠٠٠ كل ذلك سيكون شاهد صدق على وجود الشمس ، وعلى عدم ممانعة فعل عن فعل ولا مزاحمة كلام ـ مـن كلامها ـ لآخر ٠٠٠ فمثلما يشاهد هذا بوضوح :

كذلك الأمر في مكالمة سلطان الأزل والأبد ذي الجلال ، وخالق جميع الموجودات ذي الجمال ذلكم النور الازلي والشمس السرمدى ، هي مكالمة كليّة ، ومحيطة ، كعلمه سبحانه وقدرته ٠ لذا يدرك بداهة تجليّها الواسع حسب قابلية كل شيء ، من دون ان يزاحم سؤال سؤالاً ، ولا يمنع فعل فعلاً ، ولا يختلط خطاب بخطاب ٠ فعلم السائح بعلم يقيني أقرب ما يكون الى عين اليقين :

ان جميع تلك التجليات والمكالمات والالهامات ـ كل منها وحدها ، وبمجموعها متفقة ـ تدل وتشهد بالاتفاق على وجوب وجود ذلك المنوّر الازلي سبحانه ، وعلى حضوره سبحانه ، وعلى وحدته ، وعلى أحديته ·

وهكذا ذكرت إشارة مختصرة الى ما تلقاه هذا السائح المتلهف من درس المعرفة من عالم الغيب في المرتبة الرابعة عشرة والخامسة عشرة مـن المقام الاول :

« لا إله إلاّ الله الواجب الوجود الواحد الأحد الذي دلّ على وجوب وجوده في وحدته : إجماع جميـع الوحيـات الحقـة المتضمنة للتنـزلات الالهيـة ، وللمكالمـات السـبحانية ، وللتعرفات الربانية ، وللمقابلات الرحمانيـة ، عنـد مناجـاة عبـاده ، وللاشعارات الصمدانية لوجوده لمخلوقاته ، وكذا دلّ على وجوب وجوده في وحدته: إتفاق الالهامات الصادقة المتضمنة للتوددات الالهيـة ، وللاجابات الرحمانية لدعوات مخلوقاته ، وللامدادات الربانية لاستغاثات عباده، وللاحساسات السبحانية لوجوده لمصنوعاتـه » ·

* * *

١٦

ثم خاطب ذلك السائح في الدنيا عقله قائلاً : ما دمت أبحث عن مالكي وخالقي باستنطاق موجودات الكون هذا ٠ فمن الأولى لي أن أزور من هو اكمل انسان في الوجود ، واعظم من يقود الى الخير ــ حتى بتصديق أعدائه ــ وأعلاهم صيتاً وأصدقهم حديثاً وأسماهم منزلة وأنورهم عقلاً ، **ألا وهو محمد عليه الصلاة والسلام** الذي أضاء بفضائله وبقرآنه أربعة عشر قرناً من الزمان ، ٠٠ ولأجل أن أحظى بزيارته الكريمة وأستفسر منه ما أبحث عنه ، ينبغي ان نذهب معاً الى خير القرون الى **عصر السعادة ٠٠ عصر النبوة** ٠٠٠ فدخل بعقله الى ذلك العصر فرأى :

ان ذلك العصر قد صار به عليه الصلاة والسلام عصر سعادة للبشرية حقاً ٠ لأنه صلى الله عليه وسلم قد حوّل ــ في زمن يسير ــ بالنور الذي أتى به قوماً غارقاً في أشد أمية ، وأعرق بداوة حوّلهم الى أساتذة العالم وسادته ٠

وكذا خاطب عقله قائلاً : ــ « علينا قبل كل شيء ان نعرف شيئاً عن عظمة هذه الذات المعجزة ، وذلك من أحقية أحاديثه ، وصدق أخباره ٠ ومن ثم نستفسر منه عن خالقنا سبحانه » ٠٠ فباشر بالبحث ٠ فوجد على صدق نبوته من الأدلة القاطعة الثابتة ما لا يعد ولا يحصى ، ولكنه خلص الى تسع منها :ــ

اولها : هو اتصافه صلى الله عليه وسلم بجميع السجايا الفاضلة والخصال الحميدة ، حتى شهد لها غرماؤه ٠٠٠ وظهور مئات المعجزات منه؛

كانشقاق القمر الذي انشق الى نصفين باشارة من أصبعه كما نص عليه القرآن (**وانشق القمر**) ، وانهزام جيش الاعداء بما دخل أعينهم جميعا من التراب القليل الذي رماه عليهم بقبضته • كما نصت عليه الآية الكريمة: **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** (الانفال /١٧) وارتواء أصحابه من الماء النابع كالكوثر من بين أصابعه الخمسة المباركة عندما اشتد بهم العطش ••• وغيرها من مئات المعجزات التي ظهرت بين يديه ، والمنقولة إلينا نقلاً صحيحاً قاطعاً أو متواتراً ، فاستطلعها السائح الى (المكتوب التاسع عشر) أي رسالة « المعجزات الأحمدية » تلك الرسالة الخارقة ـ ذات الكرامة ـ المتضمنة لأكثر من ثلاثمائة معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم ، بدلائلها القاطعة واسانيدها الموثوقة •

ثم حدّث نفسه قائلاً : « ان من كان ذا « أخلاق حسنة » بهذا القدر و « فضائل » الى هذا الحد ، وذا « معجزات » باهرة بهذه الكثرة ، فلا جرم انه صاحب أصدق حديث ومن ثم لا يمكن أبداً ـ وحاشاه ـ ان يتنازل الى الحيلة والكذب والتمويه التي هي دأب الفاسدين » •

ثالثها : كون القرآن الذي بيده صلى الله عليه وسلم معجزاً من سبعة أوجه ، ذلك الامر الصادر من مالك الكون الذي يسلّم به ويصدّقه أكثر من ثلاثمائة مليونٍ من البشر في كل عصر • ولما كانت (الكلمة الخامسة والعشرون) اي رسالة « المعجزات القرآنية » وهي شمس رسائل النور قد أثبتت بدلائل قوية : أن هذا القرآن الكريم معجز من أربعين وجهاً ، وانه كلام رب العالمين ، لذا أحال السائح ذلك الى تلك الرسالة المشهورة لبيانها المفصل للاعجاز • ومن ثم قال : ان الأمين على كلام الله ، والمترجم الفعلي له ، والمبلغ لهذا النبأ العظيم الى الناس كافة ، وهو الحق بعينه والحقيقة بذاتها ، لا يمكن ان يصدر منه كذب قط ، ولن يكون موضع شبهة ابداً •

ثالثهـا : انه صلى الله عليه وسلم قد بعث بشريعة مطهرة ، وبدين فطري ، وبعبودية خالصة ، وبدعاء خاشع ، وبدعـوة شـاملة ، وبايمان راسخ ، لا مثيل لما بعث به ولن يكون ، وما وجد أكمل منه ولن يوجد ٠

لأن « الشريعة » التي تجلّت مـن أمّي « عليه الصلاة والسـلام » وادارت خمس البشرية على اختلافها منذ أربعة عشر قرناً إدارة قائمة على الحق والعدل بقوانينها الدقيقة الغزيرة ، لا تقبل مثيلاً أبداً ٠

وكذا « الاسلام » الذي صدر من أفعـال مَن هـو أمّي « عليـه الصلاة والسلام » ومن أقواله ، ومن أحواله ، هو رائد ومصدر ثلاثمئـة مليون من البشر ومرجعهم في كل عصر ، ومعلم لعقولهم ومرشـد لهـا ٠ ومنوّر لقلوبهم ومهذّب لهـا ، ومربّ لنفوسـهم ومزكٍّ لهـا ، ومدار لانكشاف أرواحهم ومعدن لسموها ٠ لم يأت ـ ولن ـ يأتي له مثيل ٠

وكذا تفوقه صلى الله عليه وسلم في جميع انواع « العبادات » التي يتضمنها دينه ، وتقواه العظيمة أكثر من أي أحد كان وخشيته الشديدة من الله ومجاهدته المتواصلة ورعايته الفائقة لأدق أسرار العبودية ضمن أشد الأحوال والظروف ٠ وقيامه صلى الله عليه وسلم بتلك العبودية الخالصة ، دون أن يقلد أحداً وبكل معانيها مبتدئاً ، وبأكمل صورة ، موحداً الابتداء والانتهاء ، لا شك لم يُرَ ولن يُرى لها مثيل ٠

وكذا فانه يصف ، بالجوشن الكبير ـ الذي هو واحد من آلاف أدعيته ومناجاته ـ يصف ربه بمعرفة ربانية سامية لم يبلغ العارفون والأوليـاء جميعاً الى تلك المرتبة من المعرفة ، ولا الى درجة ذلك الوصف منذ القـدم مع تلاحق الافكار ٠٠ مما يظهر أنه لا مثيل له في « الدعاء » ٠ ومن ينظر الى الايضاح المختصر لفقرة واحدة من بين تسع وتسعين فقرة للجوشن الكبير ، وذلك في مستهل رسالة « المناجاة » لا يسعه الاّ القول انه لا مثيل لهذا الدعاء الرائع (الجوشن) الذي يمثل قمة المعرفة الربانية ٠

وكذا فان إظهاره في « تبليغ الرسالة » وفي دعوته الناس الى الحق من الصلابة والثبات والشجاعة ما لا يقاربها أحد ·· فلم يداخله - ولو بمقدار ذرة - أيّ أثر للتردد ولا ساوره القلق قط ، ولم ينل الخوف منه شيئاً ، رغم معاداة الدول الكبرى والاديان العظمى له - وحتى قومه وقبيلته وعمه ناصبوه العداء الشديد - فتحدى وحده الدنيا بأسرها ، ونصره الله وأعزّه فكلل هامة الدنيا بتاج الاسلام ، فمن مثل محمد صلى الله عليه وسلم في تبليغ رسالات الله ؟ ··

وكـــذا حمله « ايمانـاً قويـاً راسـخاً ، ويقينـاً جازمـاً خارقاً ، وانكشافاً للفطرة معجزاً ، واعتقاداً سامياً ملأ العالم نوراً » فلم تتمكن أن تؤثر فيه جميع الافكار والعقائد وحكمة الحكماء وعلوم الرؤوساء الروحانيين السائدة في ذلك العصر ، ولو بشبهة ، أو بتردد ، أو بضعف ، أو بوسوسة نعم ، لم تتمكن ان تؤثر لا في يقينه ، ولا في إعتقاده ، ولا اعتماده على الله ، ولا في اطمئنانه اليه ، مع معارضتها له ، ومخالفتها إياه ، وانكارها عليه · زد على هذا استلهام جميع الذين ترقوا في المعنويات والمراتب الايمانية من أهل الولاية والصلاح ، وفي مقدمتهم الصحابة الكرام ، واستفاضتهم دوماً من مرتبته الايمانية ، ورؤيتهم له انه في أسمى الدرجات والمراتب · كل ذلك يظهر - بداهة - ان ايمانه صلى الله عليه وسلم لا مثيل له أيضاً ·

ففهم السـائح ، وصدّق عقله ان مَن كان صاحب هـذه الشـريعة السمحاء التي لا مثيل لها ، والاسلام الحنيف الذي لا شبيه له ، والعبودية الخالصة التي لا نظير لها ، والدعاء البديع الرائع ، والدعوة الكونية الشاملة والايمان المعجز ، لن يكون عنده كذب قط ، ولن يكون خادعاً مطلقاً ·

الدليـل الرابع : اجماع الانبياء عليهم السلام واتفاقهم على الحقائق الايمانية نفسها هو دليل قاطع على وجود الله سبحانه وعلى وحدانيته ، وهو شهادة صادقة ايضا على صدق هذا النبي صلى الله عليه وسلم وعلى

رسالته ، ذلك لأنّ كل ما يدل على صدق نبوة اولئك الأنبياء عليهم السلام، وكل ما هو مدار" لنبوتهم من الصفات القدسية ، والمعجزات ، والمهـام التي اضطلعوا بها توجد مثلها وباكمل منها فيه صلى الله عليه وسلم ، كما هو مصدّق تاريخاً • فأولئك الأنبياء عليهم السلام قد أخبروا بلسان المقال ـ أي بالتوراة والانجيل والزبور والصحف التي بين أيديهم ـ بمجيء هـذه الذات المباركة وبشروا الناس بقدومه صلى الله عليه وسلم (حتى ان اكثر من عشرين اشارة واضحة ظاهرة من الاشارات المبشّرة لتلك الكتب المقدسة قد بُينت بياناً جلياً واثبتت في رسالة المعجزات الاحمدية) فكما انهم قـد بشروا بمجيئه صلى الله عليه وسلم فانهم يصدّقونه صلى الله عليه وسلم بلسان حالهم ـ أي بنبوتهم وبمعجزاتهم ـ ويختمون بالتأييد على صدق دعوته اذ هو السابق الاكمل في مهمة النبوة والدعوة الى الله ، فادرك السائح انهم مثلما يدلّون ـ أي اولئك الانبياء ـ بلسان المقال وبالاجماع عـلى الوحدانية ، فانهم يشهدون ـ بلسان الحال وبالاتفاق كذلك ـ على صدق هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم •

الدليـل الخامس : ان وصول آلاف الأوليـاء الى الحـق والحقيقة ، وما نالوا من الكمالات والكرامات وما فازوا من الكشفيات والمشاهدات ليس الا بالاقتداء بهدي دساتير هذا النبي صلى الله عليه وسلم ، وبتربيتـه ، وباتباعه ، وتعقّب اثره ، فمثلما انهم يدلّون جميعاً على الوحدانية فهـم يشهدون بالاجماع والاتفاق على صدق هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ـ أستاذهم وامامهم ـ وعلى أحقية رسالته • فرأى السـائح ان مشـاهدة هؤلاء قسماً مما أخبر به صلى الله عليه وسلم من عالم الغيب ـ بنور الولاية ـ ورؤيتهم لجميع ما اخبر به ـ بنور الايمان ـ واعتقادهم به وتصديقهم له ـ إما بعلم اليقين أو بعـين اليقـين أو بحـق اليقين ـ انما تُظهر ظهوراً كالشمس : ما أصدق مرشدهم الاعظم وما أحق رائدهم الاكبر صلى الله عليه وسلم •

الدليـل السادس : ان ملايين العلماء المدققين الأصفياء ، والمحققين الصديقين ، ودهـاة الحـكماء المـؤمنين ، ممن بلغـوا أعلى المـراتب بفضل ما درسوا وتتلمذوا على ما جاء به هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسـلم – مع كونه أميا – من الحقائق القدسية ، وما نبع منها من العلوم العالية ، وما كشفت عنـه من المعرفـة الالهية ·· ان هـؤلاء جميعـاً مثلما يثبتون الوحدانية التي هي الاساس لدعوته صلى الله عليه وسـلم ويصدّقونهـا متفقين – ببراهينهم القاطعة – فانهم يتفقون كذلك ويشهدون على صدق هذا المعلم الاكبر وصواب هذا الاستاذ الأعظم وعلى أحقية كلامه صلى الله عليه وسلم · فشهادتهم هذه حجة واضحة – كالنهار – على صدقه وصواب رسالته ، وما رسائل النور بأجزائها التي تزيـد على المئـــة – مثلاً – الاّ برهان واحد فقط على صدق وصواب هذا النبي الحبيب صلى الله عليه وسـلم ·

الدليـل السابع : ان الجمع العظيم الـذين يطلـق عليهـم (الآل والأصحاب) الذين هم أشهر بني البشر – بعد الأنبياء – فراسةً واكثرهم درايةً ، واسماهم كمالاتٍ ، وافضلهم منزلة ، واعلاهم صيتاً ، واشـدهم اعتصاماً بالدين ، وأحدّهم نظـراً ، – فهم السائح – أن تحـرّي هـؤلاء وتفتيشهم وتدقيقهم لجميع ما خفي وما ظهر من أحوال هذا النبي الـكريم صلى الله عليه وسلم وأفكاره وتصرفاته بحثـاً بكمال اللهفة والشـوق ، وبغاية الدقة ، وبمنتهى الجدية ، ومن ثم تصديقهم بالاتفاق والاجماع – انه صلى الله عليه وسلم هو أصدق مَن في الدنيا حديثاً ، واسماهم مكانة ، واشدهم اعتصاماً بالحق والحقيقة – فتصديقهم هذا الذي لا يتزعزع مـع ما يملكون من إيمان عميق ، انما هو دليل باهر كدلالة النهـار على ضيـاء الشمس ·

الدليـل الثامن : ان هذا الكون كما انه يدل على صانعه ، وكاتبه ،

ومصوره الذي أوجده ، والذي يديره ، ويرتبه ، ويتصرف فيه بالتصوير والتقدير والتدبير كأنه قصر باذخ ، أو كأنه كتاب كبير ، أو كأنه معرض بديع ، أو كأنه مشهر عظيم ، فهو كذلك يستدعي لا محالة وجود من يعبّر عما في هذا الكتاب الكبير من معانٍ ، ويعلّم ويعلّم المقاصد الالهية من وراء خلق الكون ، ويعلّم الحكم الربانية في تحولاته وتبدلاته ، ويدرّس نتائج حركاته الوظيفية ، ويعلن قيمة ماهيته وكمالات ما فيه من الموجودات ٠ **اي يقتضي داعياً عظيما ، ومنادياً صادقاً ، واستاذاً محققاً ، ومعلماً بارعاً ،** فادرك السائح ان الكون ـ من حيث هذا الاقتضاء ـ يدل ويشهد على صدق هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وصوابه الذي هو أفضل من أتم هذه الوظائف والمهمات وعلى كونه أفضل وأصدق مبعوث لرب العالمين٠

الدليل التاسع : ما دام هناك وراء الحجاب من يشهر كمال بديعيته واتقانه ، بمصنوعاته هذه ؛ ذات الاتقان والحكمة ٠٠٠ ويعرّف نفسه ويوددها ، بمخلوقاته غير المحدودة ، ذات الزينة والجمال ٠٠٠ ويُوجب الشكر والحمد له ، بنعمه التي لا تحصى ، ذات اللذة والنفاسة ٠٠٠ ويشوّق الخلق الى العبادة نحو ربوبيته بعبودية تتسم بالحب والامتنان والشكر إزاء هذه التربية والاعاشة العامة ، ذات الشفقة والحماية (حتى انه يهيىء أطعمة وضيافات ربانية ما تُطمئن أدق أذواق الأفواه وجميع أنواع الاشتهاء) ٠٠٠ ويُدين الخلق الى الايمان والتسليم والانقياد والطاعة نحو الوهيته التي يظهرها بتبديل المواسم ، وتكوير الليل على النهار ، واختلافهما وأمثالها من التصرفات العظيمة ، والاجراءات الجليلة ، والفعالية المدهشة والخلاقية الحكيمة ٠٠٠ ويُظهر عدالته وانتصافه بحمايته دوماً البر والابرار وازالته الشر والاشرار ومحقه الظالمين والمكذبين واهلاكهم بنوازل سماوية ٠ فلا جرم ، **ان احب مخلوق لدى ذلك المستتر بالغيب ، وأصدق عبد له هو مَن كان عاملاً عملاً خالصاً لمقاصده المذكورة آنفاً ، ومَن**

يحل السر الأعظم في خلق الكون ويكشف لغزه ، ومن يسعى دوماً باسم خالقه ويستمد القوة منه ويستعينه وحده في كل شيء فينال المدد والتوفيق منه سبحانه • ومن ذا يكون هذا غير محمد القرشي عليه الصلاة والسلام •

ومن ثم خاطب السائح عقله : « لمّا كانت هذه الحقائق التسع شاهدة اثبات على صدق هذا النبي الكريم • فلا ريب اذن : انه قطب شرف البشرية ، ومدار افتخار العالم ، وانه حرى ولائق جداً تسميته شرف بنى آدم ، وتلقيبه بفخر العالمين • وان ما في يده من أمر الرحمن وهو القرآن الكريم المهيمن جلال سلطانه المعنوي على نصف الارض مع ما يملك من كمالاته الشخصية وخصاله السامية يظهران : ان اعظم انسان في الوجود هو هذا النبي العظيم ، فالقول الفصل اذن بحق خالقنا سبحانه هو قوله صلى الله عليه وسلم •

فتعال يا عقلى وتأمل : ان أساس جميع دعاوى هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، وغاية حياته كلها ، انما هي الشهادة على وجود واجب الوجود ، والدلالة على وحدانيته ، وبيان صفاته الجليلة ، واظهار اسمائه الحسنى ، واثبات كل ذلك ، واعلانه ، واعلامه ؛ استناداً الى ما في دينه من ألوف الحقائق الراسخة الأساس والى قوة ما اظهره الله بيده مئات من معجزاته القاطعة الباهرة •

أي ان الشمس المعنوية التي تضيء هذا الكون والبرهان النيّر على وجود خالقنا سبحانه ووحدانيته ، انما هو هذا النبي الكريم الملقب بـ « حبيب الله » صلى الله عليه وسلم ، فهنالك ثلاثة أنواع من الاجماع عظيمة لا تَغْفَل ولا تُغفِل ، تؤيد شهادته وتصدّقها :ـ

الاجماع الاول : اجماع الذين اشتهروا ، وتميزوا في العالم باسم (آل محمد) عليه وعلى آله الصلاة والسلام · تلك الجماعة النورانية التي يتقدمها الامام علي رضي الله عنه الذي قال : « لو رُفع الحجاب ما ازددت يقيناً » ، وخلفه آلاف الأولياء العظام من ذوي البصائر الحادة والنظر الثاقب للغيب من أمثال الشيخ الكيلاني (قدس سره) الذي كان ينظر ببصيرته النافذة الى العرش الاعظم واسرافيل بعظمته وهو بعد على الارض ·

الاجماع الثاني : اجماع تلك الجماعة المعروفة بالصحابة الكرام المشهورين في العالم « رضي الله عنهم أجمعين » وتصديقهم بالاتفاق وبايمان راسخ قوي لهذا النبي الكريم ، حتى ساقهم ذلك الى التضحية والفداء بأرواحهم وأموالهم وآبائهم وعشيرتهم ، وهم الذين كانوا قوماً بدواً يقطنون في محيط أمّيٍ خالٍ من مظاهر الحياة الاجتماعية والافكار السياسية ، ليس لهم هدى ولا كتاب منير · وكانوا مغمورين في ظلمة عصر « الفترة » ، فصاروا في زمن يسير أساتذة مرشدين وسياسيين وحكاماً عادلين لأرقى الأمم حضارة وعلماً واجتماعاً وسياسةً ، فحكموا العالم شرقاً وغرباً ورفرفت رايات عدالتهم براً وبحراً ·

الاجماع الثالث : هو تصديق الجماعة العظيمة من العلماء الاجلاء الذين لا يعدون ولا يحصون المتبحرين في علومهم والمحققين المدققين الذين نشأوا في أمته وسلكوا مسالك شتى ولهم في كل عصر آلاف من الحائزين على قصب السبق – بدهائهم – في كل علم ، فتصديق هؤلاء جميعاً له بالاتفاق وبدرجة علم اليقين اجماع أي اجماع ! ···

فحكم السائح بان شهادة هذا النبي الامي على الوحدانية ليست شهادة شخصية وجزئية ، وانما هي شهادة عامة وكلية راسخة لا تتزعزع ، ولن تستطيع أن تجابهها الشياطين كافة في أية جهة ولو اجتمعوا عليها ·

وهكذا ذكرت إشارة مختصرة لما تلقاه ذلك السائح الذي جال بعقله في عصر السعادة جوانب الحياة من تلك المدرسة النورانية في المرتبة السادسة عشرة من المقام الاول كالآتي :

« لا إله إلا الله الواجب الوجود الواحد الاحد الذي دل على وجوب وجوده في وحدته : فخر عالم وشرف نوع بني آدم ، بعظمة سلطنة قرآنه ، وحشمة وسعة دينه ، وكثرة كمالاته ، وعلوية اخلاقه ، حتى بتصديق أعدائه . وكذا شهد وبرهن بقوة مئات المعجزات الظاهرات الباهرات المصدقة ، وبقوة آلاف حقائق دينه الساطعة القاطعة ، باجماع آله ذوي الأنوار ، وباتفاق اصحابه ذوي الأبصار ، وبتوافق محققي امته ذوي البراهين والبصائر النورة » .

* * *

١٧

ثم ان السائح الذي لا يناله تعب ولا شبع والذي علم ان غاية الحياة في هذه الدنيا بل حياة الحياة انما هو الايمان ، حاور هـذا السائح قلبه قائـلاً :

ـ ان كلام من نبحث عنه هو أشهر كلام في هـذا الوجـود واصدقـه وأحكمه ، وقد تحدى في كل عصر من لا ينقاد اليه ، ذلك **القـرآن الـكريم** ذو البيـان المعجـز ٠٠٠ فلنراجع اذاً هـذا الكتاب الكريم ، ولنفهم ماذا يقول ٠٠٠ ولكن لنقف لحظة قبل دخولنا هذا العالم الجميل لنبحث عمـا يجعلنا نستيقن أنه كتاب خالقنا نحن ٠٠ وهكذا باشر بالتدقيق والبحث ٠

وحيث ان هذا السائح من المعاصرين فقد نظر أولاً الى «**رسائل النور**» التي هي لمعات الاعجاز المعنوي للقرآن الكريم ، فرأى :

ان هذه الرسائل البالغة مائة وثلاثين رسالة هي بذاتها تفسير قيّم للآيات الفرقانية اذ أنها تكشف عن نكاتها الدقيقة وأنوارها الزاهية ٠

ورغم ان رسائل النور قد نشرت الحقائق القرآنية بجهاد متواصل الى الآفاق كافة ، في هذا العصر العنيد الملحد ، لم يستطيع أحد أن يعارضها أو ينقدها ، مما يثبت ان القرآن الكريم الذي هو رائدها ومنبعها ، ومرجعها ، وشمسها ، انما هو سماوي من كلام الله رب العالمين ، وليس بكلام بشر ، حتى ان « الكلمة الخامسة والعشـرين » وختـام « المكتوب التاسع عشر » وهما حجة واحدة من بين مئات الحجج ، تقيمها « رسائل النور » لبيـان إعجاز القرآن ، فتثبته بأربعين وجهاً إثباتاً حيّر كل من نظر اليها ، فقدّرها واعجب بها ـ ناهيك عن انهم لم ينقدوها ولم يعترضوا عليها قط ـ بل

أثنوا عليها كثيراً . هذا وقد أحال السائح اثبات وجـه الاعجـاز للقرآن الكريم ، وانه كلام الله سبحانه حقاً الى « رسائل النور » ، الا انـه انعم النظر في بضع نقاط تبين باشارة مختصرة :

عظمة القرآن الكريم :

النقطـة الاولى : مثلما ان القرآن الكريم بكل معجزاته وحقائقه الدالة على أحقيته هو معجزة لمحمّد عليه الصلاة والسلام ، فان محمداً عليه الصلاة والسلام بكل معجزاته ودلائل نبوته وكمالاته العلمية معجزة أيضاً للقرآن الكريم وحجة قاطعة على ان القرآن الكريم كلام الله رب العالمين .

النقطـة الثانية : ان القرآن الكريم قد بدّل الحياة الاجتماعية تبديلاً هائلاً نوّر الآفاق وملأها بالسـعادة والحقـائق ، وأحـدث انقلاباً عظيماً سواء في نفوس البشر وفي قلوبهم ، أو في أرواحهم وفي عقولهم ، أو في حياتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية ، وأدام هذا الانقلاب وأداره ، بحيث إن آياته البالغة ستة آلاف وستمائة وست وستين آيه يُتلى منذ أربعة عشر قرناً في كل آن بألسنة أكثر من مئة مليون شخص في الأقل بكل إجـلال واحترام ، فيربي الناس ويزكي نفوسهم ، ويصفي قلوبهم ، ويمنح الأرواح إنكشافاً ورقياً ، والعقول إستقامة ونوراً ، والحياة حياةً وسعادةً . فلاشك أنه لا نظيرلمثل هذا الكتاب ولا شبيه له ولا مثيل. فهو خارق ، وهو معجزة.

النقطـة الثالثة : ان القرآن الكريم قد أظهر بلاغة ـ ايّما بلاغة ـ منـذ ذلك العصر الى زماننا هذا ، حتى انـه حطّ من قيمة « المعلقـات السبع » المشهورة وهي قصائد أبلغ الشعراء ، كتبت بالذهب وعُلقت على جدران الكعبة ، حتى ان ابنة « لبيد » أنزلت قصيدة أبيها من على جـدار الكعبة قائلة : « أما وقد جاءت الآيات فليس لمثلك هنا مقام » .

وكذا عندما سمع أعرابيٌ أديبٌ الآية الكريمة : **فاصدَع بما تؤمَر** (الحجر/٩٤) خرّ ساجداً . فقيل له :

ــ أأسلمت ؟ قال :

ــ لا ، بل سجدت لبلاغة هذه الآية ٠

وكذا ، فان آلافاً من أئمة البلاغة وفحول الأدب ، أمثال : عبدالقاهر الجرجاني ، والسكاكي ، والزمخشري ، قد أقرّوا بالاجماع والاتفاق :

« ان بلاغة القرآن فوق طاقة البشر ولا يمكن أن يُدرك » ٠

وكذا ، فان القرآن الكريم منذ نزوله ــ وما زال ــ يتحدى كل مغرور ومتعنت من الأدباء والبلغاء ، وينال من عتوّهم وتعاليهم ، تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ٠٠ أو ان يرضوا بالهلاك والذل في الدنيا والآخرة ٠٠٠

وبينما يعلن القرآن تحديه هذا ، اذا ببلغاء ذلك العصر العنيدين قد تركوا السبيل القصيرة وهي المضاهاة والمعارضة واتيان سورة من مثله ، سالكين السبيل الطويلة ، سبيل الحرب التي تأتي بالويل والدمار على الارواح والاموال ، مما يثبت اختيارهم هذا : انه لا يمكن المسير في تلك السبيل القصيرة ٠

وكذا ، ففي متناول الأيدي ملايين الكتب العربية التي كتبها أولياء القرآن بشغف اقتباس اسلوبه وتقليده أو كتبها أعداؤه لأجل معارضته ونقده ، فكل ما كتب ، ويكتب ، مع التقدم والرقي في الاسلوب الناشيء من تلاحق الأفكار ــ ومنذ ذلك الوقت والى الآن ــ لا يمكن ان يضاهي أو يداني أيٌّ منها أسلوب القرآن ، حتى لو استمع رجل عامي لما يتلى من القرآن الكريم لاضطر الى القول : ان هذا القرآن لا يشبه أياً من هذه الكتب ، وليس في مرتبتها ٠ فاما أن بلاغته تحت الجميع ، أو أنها فوق الجميع ٠ ولن يستطيع انسان كائنا من كان ، ولا كافر ، ولا أحمق ان يقول : انها أسفل الجميع ، فلابد اذاً ان مرتبة بلاغته فوق الجميع ٠ حتى قد تلا أحدهم الآية الكريمة :

سَبَّح لله ما في السموات والأرض (الحديد/١) ثم قال

— « اني لا أرى الوجه المعجز الذي ترونه في بلاغة هذه الآية الكريمة » •

فقيل لـه :

— « عد بخيالك ـ كهذا السائح ـ الى ذلك العصر واستمع اليها هناك »•

وبينما هو يتخيل نفسه هناك فيما قبل نزول القرآن الكريم ، اذا به يـرى :

ان موجودات العالم ملقاة في فضاء خالٍ شاسع دون حدود ، في دنيا فانية زائلة ، وهي في حالة يائسة مضطربة تتخبط في ظلمة قاتمة ، وهي جامدة دون حياة وشعور ، وعاطلة دون وظيفة ومهام ، ولكن حالما أنصت الى هذه الآية الكريمة وتدبر فيها اذا بـه يرى :

ان هذه الآية قد كشفت حجاباً مسدلاً عن وجه الكون وعـن وجـه العالم كله حتى بان ذلك الوجه مشرقاً ساطعاً ، فألقى هذا الكلام الازلي والأمر السرمدي درساً على جميع ارباب المشاعر المصطفين حسب العصور كلها ومظهراً لهم :

ان هذا الكون هو بحكم مسجد كبير ، وان جميع المخلوقات ـ ولاسيما السموات والأرض ـ منهمكة في ذكر وتهليل وتسبيح ينبض بالحيوية • وقد تسنم الكل وظائفهم بكل شوق ونشوة ، وهم ينجزونها بكل سـعادة وإمتنـان •••

هكذا شاهد السائح سريان مفعول هذه الآيـة الكريمة في الـكون ، فتذوق مدى سمو بلاغتها ، وقاس عليها سائر الآيات الكريمة ، فأدرك السر في هيمنة بلاغة القرآن الفريدة لنصف الارض وخمس البشرية ، وعلم حكمة واحدة من آلاف الحكم لديمومة جلال سلطان القرآن الـكريم بكل توقـير وتعظيم على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان دون إنقطاع •

النقطة الرابعة : ان القرآن الكريم قد أظهر عذوبة وحلاوة ذات اصالة وحقيقة بحيث ان التكرار الكثير ـ المسبب للسآمة حتى من أطيب الاشياء ـ لا يورث الملال عند من لم يفسد قلبه ويبلد ذوقه ، بل يزيد ـ تكرار تلاوته ـ من عذوبته وحلاوته ، وهذا أمر مسلّم به عند الجميع منذ ذلك العصر ، حتى غدا مضرب الأمثال ·

وكذا فقد أظهر القرآن الكريم من الطراوة ، والفتوة والنضارة والجدّة بحيث يحتفظ بها وكأنه قد نزل الآن ، رغم مرور أربعة عشر قرناً من الزمان عليه ، ورغم تيسر الحصول عليه للجميع · فكل عصر قد تلقاه شاباً نضراً وكأنه يخاطبه · وكل طائفة علمية مع انهم يجدونه في متناول أيديهم وينهلون منه كل حين ، ويقتفون أثر اسلوب بيانه يرونه محافظاً دائماً على الجدة نفسها في اسلوبه والفتوة عينها في طُرز بيانه ·

النقطة الخامسة : ان القرآن الكريم قد بسط أحد جناحيه نحو الماضي والآخر نحو المستقبل ، فالحقيقة التي اتفق عليها الأنبياء السابقون هي جذر القرآن وأحد جناحيه ، فهو يصدقهم ويؤيدهم ، وهم بدورهم يؤيدونه ويصدقونه بلسان حال التوافق ·

وكذلك فان الأولياء الصالحين ، والعلماء الاصفياء هم ثمار استمدت الحياة من شجرة القرآن الكريم ، فتكاملهم الحيوي يدل ان شجرتهم المباركة هي ذات حياة وعطاء ، وذات فيض دائم وذات حقيقة واصالة ، فالذين انضووا تحت حماية جناحه الثاني ، وعاشوا في ظلاله من أصحاب جميع الطرق الحقة للولاية ، وارباب جميع العلوم الحقة للاسلام يشهدون ان القرآن هو عين الحق ، ومجمع الحقائق ، ولا مثيل له في جامعيته وشموليته، فهو معجزة باهرة ·

النقطة السادسة : ان الجهات الست للقرآن الكريم منورة مضيئة ، مما يُبين صدقه وعدله ·

نعم ، فمن تحته أعمدة الحجج والبراهين ، وعليه تتألق سكة الاعجاز، وبين يديه ــ وهدفه ــ هدايا سعادة الدارين ، ومن خلفه ــ أي نقطة استناده ــ حقائق الوحي السماوي ، وعن يمينه تصديق ما لا يحد من أدلة العقول المستقيمة ، وعن يساره الاطمئنان الجاد والانجذاب الخالص والاستسلام التام للقلوب السليمة والضمائر الطاهرة ٠

واذ تثبت ــ تلك الجهات الست ــ ان القرآن الكريم حصن حصين سماوي في الأرض لا يقوى على خرقه خارق ولا ينفذ من جداره نافذ ، فهناك أيضاً ستة « مقامات » تؤكد انه الصدق بذاته والحق بعينه ، وانه ليس بكلام بشر قط ، وانه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠ وأول تلك المقامات : تأييد مصرّف هذا الكون ومدبّره له ، الذي اتخذ اظهار الجميل وحماية البر والصدق ومحق الخداعين وازالة المفترين ، سنةً جارية لفعاليته سبحانه ، فأيّد سبحانه وصدّق هذا القرآن بما منحه من مقام إحترام وتعظيم وأولاه من مرتبة توفيق وفلاح هو أكثر قبولاً وأعلى مرتبة وأعظم هيمنة في العالم ٠

ومن ثم فان الاعتقاد الراسخ والتوقير اللائق من الذات المباركة عليه الصلاة والسلام نحو القرآن الكريم يفوق الجميع وهو منبع الاسلام وترجمان القرآن ، وكونه بين اليقظة والنوم حينما يتنزل عليه الوحي فيتنزل عليه دون ارادته ، وعدم بلوغ سائر كلامه شأوه ، بل عدم مشابهته له الى حدّ رغم أنه أفصح الناس ، وبيانه ــ بهذا القرآن ــ بياناً غيبياً لما مضى من الحوادث الكونية الواقعة ولما ستأتي منها مع أمّيته ، من دون تردد وبكل إطمئنان ٠ وعدم ظهور أية حيلة او خطأ أو ما شابهها من الأوضاع منه مهما صغرت رغم انه بين أنظار أشد الناس انعاماً لتصرفاته ٠٠٠ فايمان هذا الترجمان الكريم والمبلغ العظيم صلى الله عليه وسلم وتصديقه بكل قوته لكل حكم من أحكام القرآن الكريم ، وعدم زعزعة أي شيء له مهما عظم يؤيد ويؤكد أن القرآن سماوي وكله صدق

وعدل وكلام مبارك للرب الرحيم ·

وكذا فان ارتباط خمس البشرية ، بل الشطر الأعظم منهم بذلك القرآن الكريم المشاهد أمامهم ، إرتباط انجذاب وتديّن ، واستماعهم اليه بجد وشوق ولهفة ، وتوافد الجن والملك والروحانيين اليه والتفافهم حوله عند تلاوته التفاف الفراشة العاشقة للنور بشهادة امارات ووقائع وكشفيات صادقة كثيرة ، كل ذلك تصديق بان هذا القرآن هو محل رضى الكون واعجابه ، وان له فيه اسمى مقام وأعلاه ·

وكذا فان أخذ كل طبقة من طبقات البشر ابتداءً من الغبي الشديد الغباء والعامي ، الى الذكي الحاد الذكاء والعالم نصيبها كاملة من الدروس التي يلقيها القرآن الكريم ، وتفهم منه أعمق الحقائق ، واستنباط جميع الطوائف من علماء مئات العلوم والفنون الاسلامية ، وبخاصة مجتهدي الشريعة السمحة ومحققي أصول الدين وعباقرة علم الكلام وامثالهم ، واستخراجهم الاجوبة الشافية لما يحتاجونه من المسائل التي تخص علومهم من القرآن الكريم ، انما هو تصديق بأن القرآن الكريم هو منبع الحق ومعدن الحقيقة ·

وكذا فان عدم معارضة أدباء العرب الذين هم في المقدمة في الأدب ولاسيما الذين لم يدخلوا الاسلام مع رغبتهم الملحة في المعارضة ، وعجزهم عجزاً تاماً أمام وجه واحد ، ـ وهو الوجه البلاغي ـ من بين وجوه الاعجاز السبعة الكبرى للقرآن ، وعجزهم عن الاتيان بسورة واحدة فقط من سور القرآن الكريم ، وصدودهم عن ذلك ، وعدم معارضته ممن أتى من مشاهير البلغاء وعباقرة العلماء لحد الآن لأي وجه من وجوه الاعجاز ـ مع رغبتهم في ذيوع صيتهم بالمعارضة ـ وسكوتهم بعجز واحجامهم عن ذلك ، لهو حجة قاطعة على ان القرآن الكريم معجزة وفوق طاقة البشر ·

نعم ان قيمة الكلام وعلوه وبلاغته تتوضح في بيان : « من قاله ؟ ولمن قاله ؟ ولِمَ قاله ؟ » ·

وبناء على هذا فان القرآن الكريم لم يأت ولن يأتي مثله ولن يدانيه شيء قط ؛ ذلك لأن القرآن الكريم انما هو خطاب من رب العوالم جميعاً وكلام من خالقها ، وهو مكالمة لا يمكن تقليدها — باي جانب من الجوانب — وليس فيه امارة تومىء بالتصنع . ثم ان المخاطب هو مبعوث باسم البشرية قاطبة ، بل باسم المخلوقات جميعاً ، وهو أكرم من أصبح مخاطباً وأرفعهم ذكراً ، وهو الذي ترشح الاسلام العظيم من قوة إيمانه وسعته ، حتى عرج به الى قاب قوسين أو أدنى فنزل مكللاً بالمخاطبة الصمدانية . ثم ان القرآن الكريم المعجز البيان قد بيّن سبيل سعادة الدارين ، ووضّح غايات خلق الكون ، وما فيه من المقاصد الربانية موضحاً ما يحمله ذلك المخاطب الكريم من الايمان السامي الواسع الذي يضم الحقائق الاسلامية كلها عارضاً كل ناحية من نواحي هذا الكون الهائل ومقلباً إياه كمن يقلب خارطة أو ساعة أمامه ، معلّماً الانسانَ صانعَه الخالق سبحانه من خلال أطوار الكون وتقلباته . فلا ريب ولابد انه لا يمكن الاتيان بمثل هذا القرآن أبداً ، ولا يمكن مطلقاً ان تُنال درجة إعجازه .

وكذا فان الآلاف من العلماء الأفذاذ الذين قام كل منهم بكتابة تفسير للقرآن الكريم في مجلدات بلغ قسم منها ثلاثين أو أربعين مجلداً بل سبعين مجلداً ، وبيانهم بأسانيدهم ودلائلهم لما في القرآن الكريم ما لا يحد من المزايا السامية والنكات البليغة والخواص الدقيقة والاسرار اللطيفة والمعاني الرفيعة والاخبارات الغيبية الكثيرة بأنواعها المختلفة ، واظهار كل هؤلاء لتلك المزايا واثباتهم لها دليل قاطع أن القرآن الكريم معجزة الهية خارقة وبخاصة اثبات كل كتاب من كتب رسائل النور البالغة مائة وثلاثين كتاباً لمزية من مزايا القرآن الكريم ولنكتة من نكاته البديعة إثباتاً قاطعاً بالبراهين الدامغة ، ولاسيما رسالة « المعجزات القرآنية » ، و « المقام الثاني من الكلمة العشرين » الذي يستخرج كثيراً من خوارق الحضارة من القرآن الكريم

أمثال القطار والطائرة ٠ و « الشعاع الاول » المسمى « بالاشارات القرآنية » الذي يبين اشارات آيات الى رسائل النور والى الكهرباء ، والرسائل الصغيرة الثمانية المسماة « بالرموزات الثمانية » التي تبين مدى الانتظام الدقيق في حروف القرآن الكريم ، وكم هي ذات أسرار ومعان غزيرة ، والرسالةالصغيرة التي تبينخواتيم سورةالفتح وتثبتإعجازها بخمسة وجوه من حيث الاخبار الغيبي ، وأمثالها من الرسائل ٠٠ فان إظهار كل جزء من أجزاء رسائل النور لحقيقة من حقائق القرآن الكريم ، ولنور من أنواره كل ذلك تصديق وتأكيد بان القرآن الكريم ليس له مثيل ، وانه معجزة وخارقة ، وانه لسان الغيب في عالم الشهادة هذا ، وانه كلام علاّم الغيوب٠

وهكذا ، لأجل هذه المزايا والخواص للقرآن الكريم التي أشير اليها في ست نقاط ، وفي ست جهات ، وفي ستة مقامات ، دامت حاكميته النورانية الجليلة وسلطانه المقدس المعظم ، بكمال الوقار والاحترام مضيئة وجوه العصور ومنورة وجه الأرض أيضاً ، طوال ألف وثلاثمائة سنة ٠ ولأجل تلك الخواص أيضاً نال القرآن الكريم ميزات قدسية حيث ان لكل حرف من حروفه عشرة أثوبة وعشر حسنات في الأقل ، وعشر ثمار خالدة ، بل ان كل حرف من حروف قسم من الآيات والسور يثمر مائة أو ألفاً أو أكثر ، من ثمار الآخرة ، ويتصاعد نور كل حرف وثوابه وقيمته في الأوقات المباركة من عشرة الى المئات ٠٠ وامثالها من المزايا القدسية قد فهمها سائح العالم ، فخاطب قلبه قائلاً :

ـ « حقاً أن هذا القرآن الكريم المعجز في كل ناحية من نواحيه قد شهد باجماع سوره وباتفاق آياته ، وبتوافق أسراره وأنواره ، وبتطابق ثماره وآثاره ، شهادةً ثابتة بالدلائل على وجود واجب الوجود ، وعلى وحدانيته سبحانه ، وعلى صفاته الجليلة ، وعلى أسمائه الحسنى ، حتى ترشحت الشهادات غير المحدودة لجميع أهل الايمان من تلك الشهادة٠

وهكذا ، فقد ذكرت في المرتبة السابعة عشرة من المقام الأول اشارة قصيرة لما تلقاه السائح هذا ، من درس التوحيد والايمان من القرآن الكريم :

لا إله إلا الله الواجب الوجود الواحد الأحد الذي دَلَّ على وجوب وجوده في وحدته : القرآن المعجز البيان ، المقبولُ المرغوبُ لأجناس المَلَكِ والإنس والجانِ ، المقروء كل آياته في كل دقيقة بكمال الاحترام ، بالسنة مئات الملايين من نوع الانسان ، الدّائم سَلطنته القدسيةُ على أقطار الأرض والاكوان ، وعلى وجوهِ الاعصار والزمان ، والجاري حاكميته المعنوية النورانية على نصف الأرض وخُمس البشر في أربعة عشر عصراً بكمال الاحتشام ٠٠ وكذا شَهِدَ وبرهن باجماع سورِهِ القدسية السماوية ، وباتفاق آياته النورانية الالهية ، وبتوافق أسراره وأنواره وبتطابق حقائقه وثمراته وآثاره بالمشاهدة والعيان ٠

★ ★ ★

١٨

ثم أن السائح والمسافر المذكور قد علم يقيناً أن الايمان الذي توصل اليه هو أعظم رأسمال الانسان ؛ اذ لا يملكه - وهو الفقير - مزرعة فانية ومسكناً مؤقتاً ، بل يملكه الكون العظيم ، ويجعله لائقاً ليظفر بملك واسع باقٍ اوسع من الدنيا ، ويوجد له - وهو الانسان الفاني - لوازم حياة أبدية خالدة ؛ فينقذه - وهو المسكين المنتظر لمشنقة الأجل - من النهاية المرعبة والاعدام الأبدي ، فاتحاً له خزائن السعادة السرمدية ، لذا خاطب السائح نفسه قائلاً : « هيا تقدمي ! لننفذ مرتبة أخرى من مراتب الايمان التي لا يحصرها حد ·· فلنطلع على مجموع الكون ، ولننصت اليه لنرى ماذا يقول هو ايضاً ، كي نضفي نوراً على تلك الدروس التي تلقيناها من أركان الكون واجزائه » ·

فنظر السائح الى مجموع الكون بمنظار واسع محيط قد استعاره من القرآن الكريم ، فرأى :

ان هذا الكون منظم تنظيماً بديعاً الى درجة ، ومنطوٍ على معاني جمة وفيرة الى حدٍّ بحيث يبدو على صورة :

كتاب سبحاني مجسم ، او قرآن رباني جسماني ، او قصر مزين صمداني ، او بلد منتظم رحماني ؛ اذ ان جميع سور ذلك الكتاب ، وآياته ، وكلماته ، بل حروفه وأبوابه وفصوله ، وصحائفه وسطوره ، وما يجري على الجميع من « المحو والاثبات » ذي المعنى اللطيف ، ومن التحويل والتغيير ذي الحكمة والابداع ·· كل ذلك - بالاجماع - يفيد بداهة :

وجود عليم بكل شيء ، قدير على كل شيء · ويعبّر عن وجود بارىء ذي جلال ، ومصور ذي كمال ، يرى كل شيء في كل شيء ، ويعلم علاقة كل شيء بكل شيء ، فيراعيـه ·

وهكذا ، فان جميـع ما في الـكون باركانه ، وانواعه ، واجـزائه ، وجزئياته ، وساكنيه ، ومشتملاته ، ووارداته ، ومصاريفه ، وتبديلاته ذات المصلحـة ، وتجديداته ذات الحكمـة ، يفيـد ويفهّم بالاتفاق : وجـود ووحدانية خالقٍ رفيع الدرجات ، وصانع ليس كمثله شيء ، يعمل بقدرة لا حد لهـا ، وبحكمة لا نهاية لهـا ، وتثبت شـهادة الكون العظيمة هـذه ـ على وجود الخالق ووحدانيته ـ حقيقتان عظيمتان واسعتان متناسبتان مع سعة الكون وعظمته ، وهما :

الحقيقة الاولى : وهي حقيقة الحدوث والامكان التي رآها حكماء الاسلام والعلماء الدهاة لأصول الدين وعلم الكلام ، وأثبتوها ببراهين دامغة ·

فقد قالوا : « لما كان في العالم ، وفي كل شيء ، تغيّر وتبدل ، فلابد أنه فانٍ وحادث ، ولا يكون قديماً · ولأنه حادث ، فلابـدّ لـه من صانع مُحدِث · ولما كان كل شيء ان لم يكن في ذاته سببٍ وجودي وعدمي على السواء فلابد أنه لن يكون واجباً ولا أزلياً ··· » ·

وقد اثبت ايضاً ببراهين قاطعة انه : لا يمكن ايجاد الاشياء بعضهـا للبعض الآخر بالدور والتسلسل الذي هو باطل ومحال · فيلزم اذاً :

وجود واجب للوجود ، يمتنع نظيره ، ومحالٌ مثيله ، كل ما عـداه ممكن ، وكل ما سواه مخلوق ·

نعم ان « حقيقة الحدوث » قد استولت على الكون ، فالعـين تـرى آكثرها ، والعقل يرى القسم الآخر منها ؛ ذلك لأننا نشاهد ؛ انه مع حلول

الخريف في كل سنة يموت عالم عظيم جداً ، فتموت معه أفراد غير محدودة لمئة ألف نوع من النباتات والحيوانات الصغيرة ، كل نوع منه بحكم كون ذي حياة . ولكن ذلك الموت يجري في غاية الانتظام ، بحيث تُودع تلك الأفراد بذورها ونواها وبويضاتها – التي تصبح مداراً لحشرها ونشورها ، والتي هي بذاتها معجزات الرحمة والحكمة وخوارق القدرة والعلم – تُودعها امانةً لدى حكمة الحفيظ ذي الجلال ، وتحت رعايته وحمايته ، مسلمةً الى أيديها صحف أعمالها ، وبرامج ما قدمت من وظائف ، وبعد ذلك تموت ... وبحلول موسم الربيع تبعث باعيانها تلك التي توفيت من الاشجار والاصول والحيوانات الصغيرة . وتُحيا وتوجد أمثال ومشابهات قسم آخر منها في أماكنها فتمثل بذلك مئة ألف مثال ونموذج للحشر الاعظم ومئة ألف دليل عليه . فموجودات الربيع الماضي بنشرها لصحائف ما قامت بها من أعمال ، وما أدت من وظائف واعلانها تلك الصحائف في هذا الربيع ، تظهر بوضوح مثالاً للآية الكريمة :

« وإذا الصُحفُ نُشِرَت » (التكوير/١٠) .

وكذا من جانب الكون ككل ؛ ففي كل خريف وفي كل ربيع يموت عالم كبير ، ويأتي الى الوجود عالم جديد ، فتلك الوفاة وذلك الحدوث يجريان بانتظام دقيق جداً ، وما فيهما من الوفيات والحدوث (المواليد) لأنواع لا تحصى من الاحياء تجري في غاية الانتظام والميزان ، حتى كأن الدنيا محط ومنزل ، يستضاف فيه الكائنات الحية ، فتأتيها عوالم سيّاحة ودنىً سيارة تؤدي فيها وظائفها ، ومن ثم ترحل عنها وتغادرها .

وهكذا فان إحداث عوالم ذات حياة ، وايجاد كائنات موظفة في هذه الدنيا ، إحداثاً وايجاداً بكل علم وحكمة ، وميزان وموازنة ، وانتظام ونظام ، واستعمالها بقدرة ، واستخدامها برحمة في المقاصد الربانية ، وفي الغايات

الالهية ، وفي الخدمات الرحمانية ، تدل بالبداهة على : وجوب وجود ذاتٍ مقدسة جليلة لا حدّ لقدرتها ، ولا نهاية لحكمتها ، ويظهرها للعقول واضحة كالشمس ·

نغلق باب مسائل الحدوث ونحيلها الى رسائل النـور وكتب علماء الـكلام ·

اما جهة « الامكان » ، فهو الآخر قد استولى على الكون وأحاط بـه ، اذ نشاهد ان كل شيء سواء كان كلياً أم جزئياً كبيراً أم صغيراً ، وكل موجود من العرش الى الفرش ، ومن الذرات الى السيارات ، إنما يُرسل الى الدنيا ، بذاتية خاصة ، وبصورة معينة ، وبشخصيّة متميّزة ، وبصفات خاصة ، وبكيفيات حكيمة ، وبأجهزة ذات مصالح وفوائد · والحـال ان اعطاء تلك الخصوصية ، لتلك الذات الخاصة ولتلـك الماهية ، من بـين إمكانات غير محدودة ··· وكذا إكساء تلك الصورة المعينة ذات النقوش والعلامات الفارقة المتناسبة ، من بين امكانـات واحتمـالات عديـدة بعـدد الصور ··· وكذا تخصيص تلـك الشخصية اللائقة بانتقاء متميز لذلـك الموجود المضطرب بين امكانات بقدر اشخاص بني جنسه ··· وكذا تمكين صفات خاصة ملائمة ذات مصالح في ذلك المصنوع الذي ليس لـه شـكل والمتردد ضمن امكانات واحتمالات بعدد أنواع الصفات ومراتبها ··· وكذا تجهيز ذلك المخلوق بتلك الكيفيات ذات الحكمة ، وتقليده بتلك الاجهزة ذات العناية التي من الممكن ان تكون في طرق شتى وطرز غير محدودة ، وهو المتحير السائب بلا هدف ضمن ما لا يُحد من الامكانات والاحتمالات لابد أن جميع هذه الاشارات ، والـدلالات ، والشـهادات ، الصادرة مـن حقيقـة « الامكان » تشكل أحد جناحي هذه الشهادة العظمى للكون ؛ **اذ انه بعـدد جميع الممكنات الكلية والجزئية ، وبعدد امكانات كل ممكن ــ مما ذكر ــ من ماهية وهويـة ، وما لـه مـن هيئـة ، وصورة ، وما يتميز بـه من صفة ،**

ووضعية ، هناك اشارات ودلالات وشهادات على وجـود واجب الوجـود سبحانه ، الذي يخصّص ، ويرجّح ، ويعيّن ، ويحدث ، ولا حدّ لقدرته ، ولا نهاية لحكمته ، ولا يخفى عليه شيء ولا شأن ، ولا يعجزه شيء ، ولا يعزب عنه شيء ، فاكبر شيء عنده يسير كاصغره • وهو القادر على ايجاد ربيع بيسر إيجاد شجرة ، وعلى ايجاد شجرة بسهولة إيجاد بذرة •

ولما كانت أجزاء رسائل النور (وبخاصة الكلمة الثانية والعشرين ، والثانية والثلاثين ، والمكتوب العشرين والثالث والثلاثين) ، قد أثبتت إثباتاً كاملاً ، وأوضحت إيضاحاً تاماً شـهادة الكون بكـلا جناحيها ، وبكلتا حقيقتيها ، لذا نختم هـذه المسألة الطويلة جـداً باحالتها الى تلك الرسـائل •

اما الجناح الثاني للشهادة الكبرى الكلية الصادرة من مجموع الكون فهـو :

الحقيقة الثانية : حقيقة التعاون

ان حقيقة التعاون تتبين بوضوح في المخلوقات الساعية لحفظ وجودها ومهامها ، وصيانة حياتها – ان كانت ذات حياة – وايفاء وظيفتها ضمن هذه الانقلابات المضطربة المستمرة والتحولات المتلاطمة الدائمة ، فتظهر هـذه الحقيقة بما هو خارج عن طوق تلك المخلوقات كلياً •

فمثلاً : ان سعي العناصر لامداد الأحياء ، وبخاصة مدّ السـحاب للنباتات ، ومسـاعدة النباتات بدورهـا للحيوانات ، ومعاونـة الحيوانات للانسان ، واللبن السائغ – كالكوثر – في الأثداء والمتدفق لاطعام الصغار ، وتسليم حاجات الأحياء وأرزاقها الكثيرة جداً والخارجة عن طاقتها وطوقهـا الى أيديها من حيث لا تحتسب ، وجري الذرات الغذائية لبناء خلايا البدن ••• وما شابهها من الأمثلة الغزيـرة لحقيقة التعاون الجاريـة بالتسـخير

الرباني وبالاستخدام الرحماني ، تظهر بجلاء ربوبية رب العالمين العامة المحيطة ورحيميته الواسعة الشاملة والذي يدير ـ سبحانه ـ الكون الواسع برمته بسهولة ادارة قصر بسيط ٠

نعم ان اظهار الاشياء المتعاونة ـ وهي جامدة وبدون شعور ولا شفقة ـ أوضاع تنم عن الشفقة وتتسم بالشعور فيما بينها دليل وأيّ دليل على أنها تُدفَع دفعاً للامداد والمعاونة فتجرى بقوة وأمر ورحمة رب ذي جلال ، رحيم مطلق الرحمة ، حكيم مطلق الحكمة :

وهكذا فان (التعاون) العام الجاري في الكون ، و (الموازنة) العامة السارية بكمال الانتظام و (المحافظة) الشاملة ، ابتداء من المجرات والسيارات الى أجهزة الكائن الحي وأعضائه الدقيقة بل الى ذرات جسمه ، و (التزيين) الجاري قلمه من وجه السموات المتلألىء الى وجه الارض البهيج ، بل الى وجه الأزهار الجميلة ، و (التنظيم) الحاكم ابتداء من درب التبانة الى المنظومة الشمسية والى ثمار الذرة والرمّان وأمثالهما ، و (التوظيف) القائم ابتداءً من الشمس والقمر والعناصر والسحب الى النحل والنمل ٠٠٠ وامثالها من الحقائق العظيمة جداً ، والشاهدة شهادة متناسبة مع عظمتها ، تشكل الجناح الثاني لشهادة الكون على وجوده سبحانه ووحدانيته وتثبتها ٠

فما دامت رسائل النور قد اثبتت هذه الشهادة العظمى وبيّنتها ، لذا نكتفي هنا بهذه الاشارة القصيرة جداً ٠

وهكذا ذكرت في المرتبة الثامنة عشرة من المقام الاول اشارة قصيرة لما تلقاه سائح الدنيا من درس الايمان من الكون :

لا إله إلا الله الواجب الوجـود ، الممتنع نظـيره ، الممكن كل ما سواه ، الواحدُ الأحد ، الذي دَلَّ على وجوب وجوده في وحدته : هذه الكائنـات ، الكتابُ الكبير المجسم والقرآن الجسماني المُعظّم ، والقصر المزين المنظم ، والبلد المحتشـم المنتظم ، باجماع سورهِ وآياته وكلماتـهِ وحروفهِ وابوابهِ وفصولـه وصحفهِ وسـطورهِ ، واتفاقِ اركانـهِ وانواعهِ واجزائـهِ وجزئياته وسكنتهِ ومشتملاتـهِ وارداتـهِ ومصـارفـهِ ، بشـهادة عظمةِ إحـاطة حقيقة الحدوث والتغير والامكان ، باجماع جميـع عُلماءِ علم الكلام ، وبشهادة حقيقة تبديل صورتـهِ ومشتملاته بالحكمة والانتظام ، وتجـديدِ حروفهِ وكلماتـهِ بالنظام والميزان ، وبشهادة عظمة إحاطةِ حقيقـة : التعـاون ، والتجـاوبِ ، والتسـاندِ ، والتداخل ، والموازنة ، والمحـافظة ، في موجوداتـه بالمشاهدة والعيـان ٠

* * *

١٩

ثم ان السائح الذي أتى الى الدنيا وبحث عن خالقها وصعد في ثماني عشرة مرتبة وبلغ عرش الحقيقة بمعراج إيماني ، ارتقى من مقام المعرفة الغيابية الى مقام الحضور والمخاطبة . فخاطب هذا الولوع المشتاق روحه قائلاً :ـ

ان الحمد والثناء الغيابيين من بدء سورة الفاتحة الى كلمة « إياك » يورثان طمأنينة تصعد بالانسان وترقيه الى مرتبة المخاطبة لـ « إيَّاكَ » فعلينا ـ إذاً ـ ان نسأل من نبحث عنه ، منه مباشرة ، ونَدَعَ البحث الغيابي عنه ، إذ ينبغي السؤال عن الشمس ـ التي تنور كل شيء ـ من الشمس نفسها . لأن الذي يُظهر كل شيء ويوضحه لاشك انه يظهر نفسه أكثر من كل شيء ؛ لذا فكما يمكننا أن نرى الشمس ونتعرف عليها من أشعتها وضيائها ، يمكننا أيضاً أن نسعى ـ حسب قابليتنا ـ في التعرف على خالقنا سبحانه وتعالى من تجليات أسمائه الحسنى ومن أنوار صفاته الجليلة .

وسنبين في هذه الرسالة بياناً مجملاً ومختصراً حقيقتين فقط من بين الحقائق الغزيرة والتفصيلات المسهبة لمرتبتين من المراتب غير المتناهية لطريقين من الطرق الكثيرة لهذا المقصد :

الحقيقة الاولى : حقيقة الفعالية المستولية تلك الفعالية المهيمنة على الكون ، والمشاهدة أمام أعيننا . وهي التي تدير ، وتبدل ، وتجدد ، جميع الموجودات المحيطة والدائمة والمنتظمة والهائلة والسماوية والأرضية . والتي تفضي الى الشعور بحقيقة تظاهر الربوبية ـ بداهة ـ ضمن حقيقة

تلك الفعالية الحكيمة بجميع جهاتها • وهذا الشعور يسوق الى ادراك تبارز الالوهية بالضرورة ضمن حقيقة تظاهر الربوبية المشعة بالرحمة بجميع جهاتها •

أي يستشعر – كأنه يُرى – أفعال فاعل قدير وعليم ، من هذه الفعالية الحكيمة المهيمنة الدائمة ومن وراء ستارها • ويُعلم بداهة – الى درجة الاحساس – الاسماء الالهية الحسنى المتجلية في كل شيء ، من هذه الأفعال الربانية ذات التدبير والتربية ومن وراء ستارها ، ويُعرف بعلم اليقين ، بل بعين اليقين ، بل بحق اليقين وجود الصفات السبعة القدسية وتحققها من هذه الاسماء الحسنى المتجلية بالجلال والجمال ومن وراء ستارها • ويُعلم كذلك بعلم قاطع وبالبداهة والضرورة وبعلم اليقين وبشهادة جميع المصنوعات ، من التجليات غير المتناهية لهذه الصفات السبعة القدسية ، ذات الحيوية والقدرة والعلم والسمع والبصر والارادة والكلام : وجود موصوف واجب الوجود ، ومسمىً واحد أحد ، وفاعل فرد صمد • فيكون وجوده سبحانه للبصيرة أظهر من الشمس للبصر واسطع منها ، فتدركه ، حتى كأنها تراه ؛ ذلك لأن الكتاب الجميل ذا المعنى اللطيف ، والبناء المنتظم المتقن ، يستدعيان بداهة فِعْلي الكتابة والبناء ، وفعلي الكتابة الجميلة والبناء المنتظم يستدعيان أيضاً بداهة إسمَي الكاتب والبنّاء ، واسمَي الكاتب والبنّاء يستدعيان أيضاً بداهة صنعة الكتابة والبناء وصفتيهما ، وهذه الصنعة والصفات تستلزمان بداهة ذاتاً تكون موصوفة وصانعة ، ومسمىً ، وفاعلة ، اذ كما لا يمكن ان يكون هناك فعل دون فاعل ، ولا اسم دون مسمى ، كذلك لا يمكن ان تكون صفة دون موصوف ، ولا صنعة دون صانع •

...

وهكذا يتقرر بناء على هذه الحقيقة والقاعدة :

ان هذا الكون ـ بموجوداته كافة ـ قـد كُتب بقلم القـدر ، وبني بمطرقة القدرة · فكُتب فيه ما لا يحد مما هو بحكم الكتب والرسائل ذات المعاني اللطيفة · وبني فيه ما لا ينتهي مما هو بمثابة بنايـات وقصور · فيشير كل واحدة منها ـ بآلاف الأوجه ـ ومعا ـ بوجوه غـير محدودة ـ اشارات لا حدّ لها ، ويشهد شـهادات لا نهاية لهـا بالافعـال الربانيـة والرحمانية غير المتناهية ، وبجلوات غير محدودة لألف اسـم واسـم من الاسماء الحسنى التي هي منشأ تلك الافعال ، وبالتجليـات غـير المتناهية للصفات السبعة السبحانية التي هي منبع تلـك الاسـماء الحسنى ·· الى وجوب وجود ووحدانية ذاتٍ جليلة أزلية أبدية ، هي موصوف تلك الصفات السبعة المحيطة القدسية ومعدنها ·

وكذا فان ما في تلك الموجودات كلها من جميع اوجه الحسن والجمال وانماط النفاسة والكمال ، ومن جمال قدسي وكمال قدسي يليق بتلـك الافعال الربانية والاسماء الالهية والصفات الصمدانية والشؤون السبحانية ويوافقها ، كل منه يشهد ـ بحد ذاته ـ وبمجموعه يشهد بداهـة على : الجمال المقدس والكمال المقدس لذاته سبحانه وتعالى ·

وهكذا فان حقيقة الربوبية المتظاهرة ضمن حقيقة الفعالية المستولية تعرّف نفسها وتبيّنها بشؤونها وتصرفها في الخـلق والايجـاد والصنع والابداع التي تتم بالعلم والحكمة ، وتظهرها في التقدير والتصوير والتدبير والادارة التي تتسم بالنظام والميزان ، وتبرز في التحويل والتبديل والتنزيل والتكميل التي تنجز بالقصد والارادة ، وتوضحها في الاطعام والانعام والاكرام والاحسان التي تعطى بالشفقة والرحمة ·

وان حقيقة تبارز الالوهية أيضاً التي تُحسّ وتوجد بداهـة ضمن حقيقة تظاهر الربوبية تعرّف نفسها وتفهمها أيضـاً بتجليـات **الاسماء**

الحسنى ذات الرحمة والكرم ، وبالتجليات الجلالية والجمالية للصفات الثبوتية السبعة التي هي : « الحياة » و « العلم » و « القدرة » و « الارادة » و « السمع » و « البصر » و « الكلام » ٠

نعم فكما ان صفة (الكلام) تعرّف الذات الأقدس سبحانه وتعالى بالوحي والالهامات ، فان صفة (القدرة) كذلك تعرّف ذاته جل وعلا بآثارها البديعة التي هي بمثابة كلماتها المجسّمة التي تصف قديراً ذا جلال، وتعرّفه باظهارها الكون من أقصاه الى أقصاه بماهية فرقان جسماني٠

وان صفة (العلم) أيضاً تعرّف الذات الواحد الأحد الموصوف : بقدر جميع المصنوعات الحكيمة المنتظمة الموزونة ، وبعدد جميع المخلوقات التي تدار وتدبّر وتزيّن وتميّز بالعلم ٠

أما صفة (الحياة) ، فان جميع الآثار الدالة على (القدرة) ، والصور والاحوال ذات الانتظام والحكمة والميزان والزينة ، التي تنبىء عن وجود (العلم) ، وجميع الدلائل التي تخبر عن بقية الصفات الجليلة ، مع دلائل صفات (الحياة) نفسها تدل على تحقق صفة (الحياة) ، والحياة نفسها كذلك مع جميع أدلتها تلك ، تبرز جميع ذوي الحياة التي هي بحكم مراياها، وتحوّل الكون برمته الى صورة مرآة كبيرة جداً متكونة من مرايا غير محدودة متبدلة دائماً ومتجددة باستمرار لأجل إظهار التجليات البديعة والنقوش الرائعة المتنوعة جديدة فتية في كل حين ٠

وقياساً على هذا فان صفات (البصر) و (السمع) و (الارادة) ، و (الكلام) كل منها تعرّف كذلك الذات الأقدس تعريفاً واسعاً جداً بسعة الكون وتفهمّها ٠

وان تلك الصفات مثلما انها تدل على وجود ذاته جلّ وعلا ، فهي تدل كذلك بداهة على وجود الحياة وتحققها ، وعلى انه سبحانه وتعالى

« حي » ؛ ذلك لأن العلم علامة الحياة ، والسمع أمارة الحيوية ، والبصر يخصّ الأحياء ، والارادة تكون مع الحياة ، والقدرة الاختيارية توجد في ذوي الحياة ، أما التكلم فهو شأن الأحياء المدركين ٠

وهكذا يفهم من هذه النقاط : ان لصفة (الحياة) أدلة وبراهين تبلغ سبعة أضعاف سعة الكون ، تعرّف وجودها ووجود موصوفها (الحي) حتى اصبحت (الحياة) أساس جميع الصفات ومنبعها ، ومصدر الاسم الأعظم ومداره ٠٠٠

وحيث ان رسائل النور قد أوضحت شيئاً من هذه الحقيقة الاولى واثبتتها ببراهين دامغة ، نكتفي حالياً بهذه القطرة المذكورة من هذا البحر ٠

الحقيقة الثانية : هي التكلم الالهي القادم من صفة الكلام ٠

إن الكلام الالهي سبحانه لا نهاية له ، وذلك بسر الآية الكريمة :

« **قل لَو كان البحرُ مِداداً لِكلمات ربّي** » (الكهف ـ ١٠٩)

فالكلام أظهر دليل على معرفة وجود المتكلم ، **أي أن هذه الحقيقة (التكلم الالهي) تشهد شهادة غير متناهية على وجود المتكلم الأزلي سبحانه** وعلى وحدانيته ٠ **ولقد جاءت شهادتان قويتان لهذه الحقيقة بما بُيّن في المرتبتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة من هذه الرسالة من حيث الوحي والالهام ، وجاءت شهادة أخرى واسعة في المرتبة العاشرة منها حيث أشير الى الكتب المقدسة السماوية ، وهناك شهادة أخرى ساطعة وباهرة وجامعة هي في المرتبة السابعة عشرة حيث القرآن الكريم المعجز ٠ فنحيل بيان هذه الحقيقة وشهادتها الى تلك المراتب ٠**

وهكذا فقد كانت أنوار وأسرار الآية الكريمة :

« **شهد اللهُ أنه لا إله إلاّ هو والملائكةُ وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيزُ الحكيم** » (آل عمران/١٨) **التي أعلنت هذه الحقيقة**

إعلاناً معجزاً ، وافادت شهادتها مع شهادة بقية الحقائق ، كانت كافية ووافية لصاحبنا السائح حتى انه لم يستطع ان يتجاوزها ٠

فذكرت في المرتبة التاسعة عشرة من المقام الاول إشارة لمعانٍ مختصرة لما تلقاه هذا المسافر من درس في هذا المقام القدسي :

« لا إلـه إلاّ الله الواجبُ الوجود الواحد الأحد ، له الاسماء الحسنى ، وله الصفات العليا ، وله المثل الاعلى ، الذي دلّ على وجوب وجوده في وحدته : الذاتُ الواجب الوجود ، باجماع جميع صفاتهِ القدسيّة المحيطةِ ، وجميع اسمائه الحسنى المتجلية ، باتفاق جميع شؤوناتهِ وافعالهِ المتصرفةِ ، بشهادة عظمةِ حقيقة تبارز الالوهية في تظاهر الربوبية ، في دوام الفعالية المستولية ، بفعل الايجاد والخلق والصنع والابداع بارادةٍ وقدرةٍ ، وبفعل التقدير والتصويرِ والتدبير والتدوير باختيارٍ وحكمةٍ ، وبفعل التصريف والتنظيم والمحافظةِ والادارةِ والاعاشةِ بقصدٍ ورحمةٍ ، وبكمال الانتظام والموازنة ٠ وبشهادة عظمةِ إحاطةِ حقيقة اسرار : شَهِدَ اللهُ انه لا إلـهَ إلاّ هو والملئكةُ وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم ٠

* * *

تنبيـــه

إن كلاً من الحقائق الشـاهدة لتسع عشرة مرتبة من مراتب الباب الأول المذكورة آنفـاً ، تدل على الوحـدة والأحـدية باحاطتها ، الا ان دلائل وجـوب الوجود ذكـرت مقـدماً لاثباتهـا الوجـود صراحة ٠

أما الباب الثاني ، فلقيامه باثبات التوحيـد صراحة أولاً ، وما يتضمنه بعـد ذلـك من اثبـات الوجود ، فقد أطلق عليه « براهين التوحيـد » ٠ والا فكلاهما ـ اي الباب الاول والثاني ـ يثبتان الوجود والتوحيد معاً ، ولكن لأجل التمييز بينهما يكرر فقرة « بشهادة عظمة احاطة حقيقة » في الباب الأول ، وفقرة « بمشاهدة عظمة احاطة حقيقة » في الباب الثاني ، إشارة للوحدانية الظاهرة الجلية ، وكأنها مشاهدة ٠

وقد كنت أنوي توضيح مراتب الباب الثاني القابل ، كما هو في الباب الأول ، ولكن اضطررت الى الاختصار والاجمال لبعض الموانع والأحوال ؛ لذا نحيل القارىء الكريم الى رسائل النور لاستيفاء حقه من البيان والوضوح ٠

الباب الثاني

براهين التوحيد

[ان ذلك المسافر الذي أُرسل الى الدنيا لأجل الايمان ، والذي قام بسياحة فكرية في عالم الكائنات للاستفسار عن خالقه من كل شيء ، والتعرف على ربّه في كل مكان ، وترسخ ايمانه بدرجة حق اليقين ، بوجـوب وجـود إلهه الذي يبحث عنه خاطب هـذا السائح عقله قائلاً :

هلّم لنخرج معاً في سياحة اخرى جديدة لنرَ من خلالها براهين تقودنا الى وحدانية خالقنا الجليل سبحانه وتعالى ·

وطفقا معاً يبحثان بشوق غامر عن (براهـين التوحيد) هذه ، فوجدا في أولى المنازل أن هناك أربع حقائق قدسـية تسـتحوذ على الكائنات ، وتستلزم التوحيد بدرجة البداهة] ·



الحقيقة الاولى : الالوهية المطلقة

إن إنهماك كل طائفة من طوائف البشرية بنوع من أنواع العبادة وانشغالهم به انشغالاً كأنه فطرى ‥ وقيام سائر ذوي الحياة ـ حتى الجمادات ـ بخدماتها ووظائفها الفطرية التي هي بحكم نوع من أنواع العبادة ‥‥ وكون كلٍ من النعم والآلاء المادية والمعنوية التي تغمر الكائنات وسيلة عبادة وشكر لمعبودية تمدّهم سبل العبادة والحمد ‥‥ واعلان الوحى والالهام ما ترشح وما تجلى معنوياً من الغيب ، بمعبودية الاله الواحد ‥‥ كل هذا لابد أنه يثبت بالبداهة : تحقق الالوهية الواحدة المطلقة وهيمنتها ․

فما دامت حقيقة مثل هذه الألوهية كائنة وموجودة ، فلن تقبل إذا المشاركة معها ؛ لأن الذين يقابلون تلك الألوهية (أي المعبودية) بالشكر والعبادة هم أثمارٌ ذات مشاعرٍ في قمة شجرة الكائنات ، لذا فان إمكان وجود آخرين يشدّون انتباه اولئك الشاعرين ، ويجذبونهم اليهم ، ويجعلونهم ممتنين لهم وشاكرين ، محاولين تنسيتهم معبودهم الحق الذي يمكن أن ينسّى بسرعة لغيابه عن الرؤية ولاحتجابه عن الأنظار ، هي مناقضة لماهية الألوهية ومنافية لمقاصدها القدسية ، ولا يمكن قبولها إطلاقاً ․ ومن هنا أفاض القرآن الكريم في رفض الشرك بشدة ، وهدد المشركين بعذاب جهنم ․

* * *

٢١

الحقيقة الثانية : الربوبية المطلقة

ان التصرف العام الشامل من لدن يدٍ غيبية في جميع الكائنات ـ وبخاصة الأحياء منها ـ بحكمة ورحمة في تربيتها وفي إعاشتها ، اللتين تتمان معاً بالطريقة نفسها ، في كل جهة من الجهات ، وبصورة غير مأمولة ومتوقعة ، مع اكتناف بعضها البعض الآخر ، انما هو رشحات وضياء يدل على الربوبية الواحدة المطلقة ؛ بل هو برهان قاطع على تحققها ٠

فما دامت هناك ربوبية واحدة مطلقة فلن تقبل اذاً الشرك ،ولا المشاركة قطعاً ؛ ذلك لأن أهم غايات تلك الربوبية، وأقصى مقاصدها هو إظهارجمالها، واعلان كمالها ، وعرض صنائعها النفيسة ، وابراز بدائعها القيّمة ، وقد تجمعت هذه المقاصد جميعها في كل ذي روح ، بل حتى في الجزئيات ؛ لذا لا يمكن أن تقبل الربوبية الواحدة المطلقة الشرك ولا الشركاء إطلاقاً ، إذ أن تدخلاً عشوائياً للشرك في أي موجود من الموجودات ـ مهما كان جزئياً ـ وفي أي كائن حي ـ مهما كان بسيطاً أو صغيراً ـ سيفسد تلك الغايات ، ويبطل تلك المقاصد ، وسيصرف الاذهان عن تلك الغايات ، وعمن أرادها وقصدها ، الى الأسباب ٠ وهذا ما يخالف ماهية الربوبية المطلقة تماماً ويعاديها ، فلابد اذاً أن تمنع هذه الربوبية الواحدة المطلقة الشرك وصوره بأي شكل من الأشكال ٠ فارشادات القرآن الكريم الغزيرة المستمرة الى التوحيد ، والى التقديس والتنزيه والتسبيح ، في آياته الكريمة ، وفي كلماته ، وحتى في حروفه وهيئاته ، انما هي نابعة من هذا السر الأعظم ٠



الحقيقة الثالثة : الكمالات

نعم ؛ ان جميع ما في الكائنات من حكم سامية ، ومن جمال خارق ، ومن قوانين عادلة ومن غايات حكيمة إنما تدل ـ بالبداهة ـ على وجود حقيقة الكمالات ٠٠ وهي شهادة ظاهرة على كمال الخالق سبحانه الذي أوجد هذه الكائنات من العدم ، والذي يدبّر أمرها في كل جهة وناحية ، إدارة معجزة جذابة جميلة ، فضلاً عن انها دلالة واضحة على كمال الانسان الذي هو المرآة الشاعرة العاكسة لتجليات الخالق جل وعلا ٠

فما دامت هناك حقيقة الكمالات ، وما دام كمال الخالق الذي أوجد الكائنات في الكمال هو ثابت ومحقق ، وما دام كمال الانسان الذي هو أفضل ثمرة للكائنات ، وخليفة الله في الارض ، وأكرم مصنوع وأحب مخلوق للخالق سبحانه وتعالى ؛ حقيقة ثابتة محققة أيضاً ٠ فلابد ان الشرك الذي يحوّل صورة الكائنات ـ ذات الكمال والحكمة الظاهرة ـ الى ألعوبة بيد الصدفة ، والى لهو تعبث به الطبيعة ، والى مجزرة ظالمة رهيبة لذوي الحياة ، والى مأتم مظلم مخيف لذوي الشعور ـ حيث يهوي فيه كل شيء الى الفناء ، وينحدر الى الزوال ويمضي حثيثاً بلا غاية ولا هدف ـ والذي يردي الانسان ـ الواضحة كمالاته من آثاره ـ الى أسفل درك من دركات الحيوان كأتعس مخلوق وأذله ، والذي يسدل الستار على مرايا تجليات كمال الخالق سبحانه ـ وهي جميع الموجودات الشاهدة على الكمال المقدس المطلق للخالق الكريم ـ مبطلاً بذلك نتيجة فعاليته ، وخلّاقيته سبحانه !! فلا يمكن ان يستند ـ هذا الشرك ـ على حقيقة ما مطلقاً ، ولا يمكن ان يكون موجوداً في الكون أبداً ٠ هذا وان تصدي الشرك للكمالات الالهية والانسانية والكونية ومعاداته لها وإفساده فيها قد بحث واثبت مفصلاً في « الشعاع الثاني » الذي يبين ثماراً ثلاثاً للتوحيد وبالاخص في المقام الأول منه مع دلائل قوية قاطعة ، فنحيل القارىء الكريم الى ذلك ٠



الحقيقة الرابعة : الحاكمية المطلقة

نعم : ان مَن ينظر نظرة واسعة فاحصة الى الكائنات ، يرى أنها بمثابة مملكة مهيبة جداً ؛ في غاية الفعالية والعظمة ، وتظهر له كأنها مدينة عظيمة تتم إدارتها ادارةً حكيمة ، وذات سلطة وحاكمية في منتهى القوة والهيبة · ويجد أن كل شيء وكل نوع منهمك ومسخر لوظيفة معينة · فالآية الكريمة (ولله جُنودُ السمواتِ والأرضِ) (الفتح/٧) تشعر بمعاني الجندية في الموجودات التي تتمثل ابتداءً من جيوش الذرات ، وفرق النباتات ، وأفواج الحيوانات الى جيوش النجوم · كل اولئك جنود ربانية مجندة لله ، فنجد في جميع أولئك الموظفين الصغار جداً ، وفي جميع هؤلاء الجنود المعظمة جداً ، سريان الأوامر التكوينية المهيمنة ، وجريان الاحكام النافذة ، وقوانين الملك القدوس ، مما يدل دلالة عميقة ــ بالبداهة ــ على وجود الحاكمية الواحدة المطلقة والآمرية الواحدة الكلية ·

فما دامت الحاكمية الواحدة المطلقة حقيقة كائنة ، وهي موجودة · فلابد ان الشرك لا حقيقة له · ذلك لأن الحقيقة الجازمة التي تصرح بها الآية الكريمة (لَو كانَ فيهِما آلِهةٌ إلاّ الله لَفَسدَتا) (الانبياء /٢٢) تفيد بأنه لو تدخلت أيدٍ متعددة في مسألة معينة وكان لها النفوذ ، لاختلطت المسألة نفسها · فلو كان في مملكة ما حاكمان ، أو حتى لو كان في ناحية ما مسؤولان ، فان النظام يفسد ويختل وتتحول الادارة الى هرج ومرج · والحال أن هناك نظاماً رائعاً جداً ، يسري ابتداء من جناح البعوضة الى قناديل السماء ، ومن الخلايا الجسمية الى أبراج الكواكب والسيارات ، مما لا يمكن ان يكون للشرك فيه أي تدخل ولو كان بمقدار ذرة ·

وكذا ، فالحاكمية نفسها انما هي مقام للعزة ، فلن يقبل هذا المقام منافساً وخصيماً ، لما فيه من تجاوز لهيبته وكسر لعزته ٠

نعم ، ان إقدام الانسان ـ المحتاج دوماً الى من يعاونه ، لضعفه وعجزه ـ على قتل أخيه أو بنيه ـ ظلماً ـ لأجل حاكمية ظاهرية ، مؤقتة ، جزئية ؛ يدل على ان الحاكمية لا تقبل المنافسة أبداً ٠ فلئن كان الانسان ـ وهو العاجز ـ يقدم على مثل هذا الفعل لأجل حاكمية جزئية ٠ فلا يمكن بحال من الأحوال ان يرضى من هو القدير المطلق الذي يملك الكون كله تدخلاً أو شركاً من أحد في حاكميته الذاتية المقدسة التي هي محور ربوبيته المطلقة ، وألوهيته الحقيقية الكلية ٠

ونظراً لاثبات هذه الحقيقة المشعة بدلائل قوية في « المقام الثاني » من « الشعاع الثاني » وفي مواضع عدة من « رسائل النور » فاننا نحيل القارىء الكريم اليها ٠

وهكذا فان صاحبنا المسافر بعد أن شهد هذه الحقائق الأربع تحققت لديه وحدانية الله سبحانه بدرجة الشهود ٠ فنما إيمانه وارتقى وبدأ يردد بقوة :

« لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له » ٠

واشارة لما تلقاه من درس في هذا المنزل فقد ذكر في المقام الأول من الباب الثاني :

> لا إله إلاّ الله الواحد الأحد الذي دلّ على وحدانيته ووجوب وجوده مشاهدة عظمة حقيقة تبارز الألوهية المطلقة ، وكذا مشاهدة عظمة إحاطة حقيقة تظاهر الربوبية المطلقة المقتضية للوحدة ٠ وكذا مشاهدة عظمة إحاطة حقيقة الكمالات الناشئة من الوحدة وكذا مشاهدة عظمة احاطة حقيقة الحاكمية المطلقة المانعة والمنافية للشركة ٠

●●

ثم ان ذلك المسافر ـ الذي لا يسكن ولا يهدأ ـ خاطب قلبه قائلاً :

ان تكرار أهـل الايمان **لا إله إلاّ هـو** باستمرار وبخاصة المتصوفة منهم ، واعلانهم نداء التوحيد ، وتذكيرهم به يبين لنا : ان هنـاك مراتب كثيرة جداً للتوحيد · وان التوحيد هو أهم وظيفة قدسية ، وأحلى فريضة فطرية ، وأسمى عبادة إيمانية · فما دام الأمر هكذا ، فتعال يا قلب لنفتح باباً لمنزلٍ آخر من منازل دار العبرة والامتحان هذه ، لنتعرف من خلالـه على مرتبة أخرى من مراتب التوحيد ؛ لأن التوحيد الحقيقي الذي ظللنا نبحث عنـه ليس مقصوراً على معرفـة نابعة من تصور فحسب بل هـو ـ ما يقابل التصور في علم المنطق ـ من التصديق الذي هو علمٌ ، وهو نتيجة نابعة من البرهان ، وهو أسمى من مجرد المعرفة التصورية بكثير ·

فالتوحيد الحقيقي انما هو حكمٌ ، وتصديق ، واذعان ، وقبول بحيث يمكّن المرء ان يهتدي الى ربّه من خلال كل شيء · ويمكنه ان يرى في كل شيء السبيل المنورة التي توصله الى خالقه الكريم ، فلا يمنعه شيء قط عن سكينة قلبه واطمئنانه ، واستحضاره لمراقبة ربّه ·

فلو لم يكن الأمر هكذا ، لأضطر المرء ان يمزق حجـاب الكائنـات ويخرقه ـ كل مرة ـ كي يتمكن من التعرف على ربّه !! · لذا نادى المسافر قائلاً : هيا بنا إذاً لنطرق باب « الكبرياء والعظمة » ولندخل منزل « الآثار والافعال » وعالم « الايجاد والابداع » ··· فما ان ولج هذا المنزل حتى رأى ان هنالك « خمس حقائق محيطة » تستحوذ على الكائنات وتثبت التوحيد وتستلزمه بالبداهة ·

٢٤

الحقيقة الاولى : حقيقة العظمة والكبرياء

نظراً لتوضيح هذه الحقيقة ببراهين في « المقام الثاني » من « الشعاع الثاني » وفي عدة مواضع من رسائل النور نكتفي هنا بما يأتي :

ان الذي أوجد النجوم التي يبعد بعضها عن البعض الآخر آلاف السنين، والذي يتصرف فيها في آن واحد وعلى نمط واحد · والذي يخلق أفراداً غير معدودة لنوع واحد من زهرة نابتة في الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب من الأرض ويصوّرها في وقت واحد ، وعلى هيئة واحدة ، وصورة واحدة ، والذي يخبرنا عن أعجب حادثة ماضية وغيبية في قوله تعالى « **هو الذي خلق السموات والأرضَ في سِتّةِ أيّامٍ** » (الحديد /٤) مثبتاً ، تلك الحادثة ، كأنها تحدث أمامنا ، بما يخلق من مثيلاتها ونظائرها على وجه الأرض ، وبخاصة عند حلول موسم الربيع · ـ يا لروعة ما نجد عياناً في هذا الموسم من اكثر من مئة ألف مثال على « الحشر الاعظم » لاكثر من مئتي ألف نوع من طوائف النباتات ، وأمم الحيوانات ، وهي تخلق وتنشأ في بضعة أسابيع فقط ـ لا ريب أن من بيده إدارة هـــذا الحشد الهائل مجتمعاً وتربيته ، واعاشته ، وتمييزه بعضه عن البعض الآخر ، وتزيينه ، بكمال الانتظام والميزان دون لبس ، أو نقص ، أو خطأ ، ودون تأخير ، أو إهمال ، وهو الذي بيده دوران الأرض وحصول ظاهرة الليل والنهار بانتظام بديع كما صرحت به الآية الكريمة : « **يولج الّيلَ في النهارِ ويولج النهارَ في الّيل** » (لقمان /٢٩) مسجلاً وممحياً ـ بهذا الدوران ـ الحوادث اليومية وتبدلاتها في صحيفة الليل والنهار · هو الذي يعلم في الوقت نفسه ، وفي اللحظة

نفسها ، خبايا الصدور وخلجات القلوب ، فيديرها بارادته ٠٠٠ ولما كان كل فعل ، من هذه الافعال المذكورة ، فعلاً واحداً منفرداً ، خاصاً ، ينبغي أن يكون فاعلها أيضاً واحداً أحداً قادراً صاحب جلال ، له من العظمة والكبرياء ـ بداهة ـ ما يقتلع كل جذور الشرك ويمحو جميع آثاره واحتمالاته مهما كان نوعها وبأية جهة كانت ، وفي أي شيء كان ، وفي أي مكان كان ٠

فما دامت هذه الكبرياء وهذه القدرة العظيمة موجودتين ، وما دامت صفة الكبرياء هذه هي في منتهى الكمال والاحاطة التامة ، فلا يمكن أن تسمحا مطلقاً لأي نوع من أنواع الشرك ؛ لأن الشرك يعني اسناد العجز والحاجة بتلك القدرة المطلقة ، والصاق القصور بتلك الكبرياء ، وعزو النقص بذلك الكمال ، وتحديد تلك الاحاطة بالقيد ، وانهاء غير المتناهي المطلق ٠ فلا يمكن ان يقبل ذلك كل من له عقل وشعور ، وكل من له فطرة سليمة لم تتفسخ ٠

وهكذا فالشرك من حيث هو تحدٍ لتلك الكبرياء ، وتطاول على عزّة ذي الجلال ، ومشاركة للعظمة ، فهو جريمة ـ وأية جريمة ! ـ بحيث لا تدع مجالاً للعفو والصفح والمغفرة ، وان القرآن ـ ذا البيان المعجز ـ يعبّر عن هذا ويبيّنه ويشفعه بذلك التهديد الصارخ والوعيد الرهيب :

إنَّ الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرِكَ به ويغفِرُ ما دونَ ذلكَ لمن يشاء » (النساء ـ ٤٨) ٠

* * *

٢٥

الحقيقة الثانية : ظهور الافعال الربانية ظهوراً مطلقاً ومحيطاً

وهي التي يشاهد تصرفها في الكائنات قاطبة وتظهر ظهوراً مطلقة محيطاً ، ولا يحدد تلك الافعال الا الحكمة الربانية ، والارادة الالهية ، وقابليات المظاهر • فالصدفة العشواء والطبيعة الصماء والقوة العمياء والاسباب الجامدة ، والعناصر المبعثرة ، لن تمتد يد منها أو تتدخل في تلك الافعال التي هي في منتهى الدقة والميزان والحكمة ، والتي تنجز بكل بصيرة وحيوية وانتظام وإحكام • وليست الاسباب الا حجاباً ظاهرياً فحسب تستخدمها القدرة الفاعلة لذي الجلال والعزة ، وتسخرها وفق أمره وإرادته وقوته •

ونودّ هنا بيان ثلاثة أمثلة عن الأفعال الربانية ـ من بين الآلاف منها ـ مما تشير اليها الآيات الثلاث المتصلة ببعضها في سورة النحل ، ومع ان كل فعل منها يحتوي على نكات لا حصر لها الا اننا نذكر منها هنا ثلاثاً فقط •

الآيـة الاولى :

« واوحى ربُّكَ الى النَّحلِ أن اتَّخِذي منَ الجبالِ بُيوتاً » (النحل/٦٨) •

نعم ، ان النحلة معجزة القدرة الربانية ، فطرةً ، ووظيفة ، ويا لها من معجزة عظيمة حتى سميت باسمها سورة جليلة في القرآن الكريم ؛ ذلك لأن : تسجيل المناهج الكاملة لوظيفتها الجسيمة ، في رأس صغير جداً لماكنة صغيرة للعسل ، ومن ثم وضع أطيب الأطعمة والذها في جوفها الصغير وطبخها فيه ، ومن ثم اختيار المكان المناسب لوضع سم قاتل مهدم لأعضاء

حية في رميحته دون ان يؤثر في الاعضاء الاخرى للجسم ·· لا يمكن أن يتم كل هذا الا بمنتهى الدقة والعلم ، وبمنتهى الحكمة والارادة ، وغاية الموازنة والانتظام ؛ لذا لن يتدخل مطلقاً ما لا شعور له ولا نظام ولا ميزان من أمثال الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء في مثل هذه الافعال البديعة ·

وهكذا نرى ثلاث معجزات في هذه الصنعة الالهية ، ونشاهد ظهور هذا الفعل الرباني أيضاً فيما لا يحد من النحل في أرجاء المعمورة كافة · فبروز هذا الفعل الرباني واحاطته بالجميع، بالحكمة نفسها، والدقة نفسها، والميزان نفسه ، وفي الوقت عينه ، وبالنمط عينه ، يدل على الوحدة بداهة ويثبت الوحدانية ·

الآية الثانية :

« وإنّ لكم في الأنعامِ لعبرةً نُسقيكم مِمّا في بُطونِهِ من بينِ فَرْثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربينَ » (النحل /٦٦) ·

ان هذا الأمر الالهي ليتقطر عبراً ودروساً · نعم ، ان اسقاء اللبن الأبيض الخالص ، النظيف الصافي ، المغذي اللذيذ ، من مصانع الحليب المغروزة في أثداء الوالدات وفي مقدمتها البقرة والناقة والمعزى والنعجة ، الذي يتدفق بسخاء من بين فرث ودم دون ان يختلط بهما أو يتعكر ، وان غرس ما هو ألذ من اللبن وأحلى منه وأطيب وأثمن ، في أفئدة تلك الوالدات وهو الحنان والشفقة التي تصل حد الفداء والايثار ، ليحتاج — حتماً — الى مرتبة من الرحمة والحكمة والعلم والقدرة والاختيار والدقة بحيث لن يكون مطلقاً من فعل المصادفات العشوائية والعناصر التائهة والقوى العمياء ، لذا فان تصرف هذه الصنعة الربانية ، واحاطة هذا الفعل الالهي ، وتجليها في الحكمة نفسها ، والدقة نفسها ، والاعجاز نفسه ، وفي آن واحد ، وطراز واحد ، في أفئدة تلك الآلاف المؤلفة من أضراب الوالدات وفي أثدائها ، وعلى وجه الأرض كافة ، يثبت الوحدة بداهة ويدل على الوحدانية ·

الآيـة الثالثـة :ـ

« ومن ثمراتِ النَّخيل والأعنابِ تتَّخذونَ منهُ سكراً ورزقاً حسناً إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يعقلون » (النحل/٦٧) •

تلفت هذه الآية الكريمة النظر والانتباه الى النخيل والاعناب ، فتنبه الانسان الى : « أن في هاتين الثمرتين آية عظيمة لأولي الالباب ، وحجة باهرة على التوحيد » • نعـــم ، ان الثمرتين المذكورتين تعتبران غذاءً وقوتـاً ، وثمرة وفاكهة في الوقت نفسه ، وهما منشأ كثير من المواد الغذائية اللذيذة ، رغم ان شجرة كل منهما تنمو في تراب جامد ، وتترعرع في أرض قاحلة • فكل منهما معجزة من معجزات القدرة الالهية ، وخارقة من خوارق الحكمة الربانية ، وكل منهما مصانع السكر والحلويات ، ومعامل شراب معسّل ، وصنائع ذات ميزان دقيق حساس وانتظام كامل ، ومهارة حكيمة ، واتقان تام ، بحيث ان الذي يملك مقدار ذرة من عقل وبصيرة يضطر الى القول : « ان الذي خلق هذه الأشياء هكذا ، هو الذي أوجد الكائنات قاطبة » ؛ لأن ما نراه أمام أعيننا ـ مثلاً ـ من تدلي ما يقارب عشرين عنقوداً مـن العنب ، من هذا الغصن الصغير النحيف ، كل عنقود منه يحمل ما يقارب المائة من الحبات اللطيفة واللباب المعسّلة ، وكل حبة من تلـك الحبـات مغلفة بغلاف رقيق لطيف وملوّن زاهٍ ، وتضم في جوفها الناعم نوى صلدة حاملة لتواريخ الحياة ومنهاجها ••• نعم ، ان خلق كل هذا وغيره في جميع العنب وامثاله ـ وهي لا تعد ولا تحصى ـ على وجه البسيطة كافة ، بالدقة نفسها ، والحكمة عينها ، وايجاد تلك الصنعة الخارقة المعجـزة باعدادها الهائلة في وقت واحد ، وعلى نمط واحد ، ليثبت بالبداهة :

ان الذي يقوم بهذا الفعل ان هو الاّ خالق جميع الكائنات ، وان هذا الفعل الذي اقتضى تلك القدرة المطلقة والحكمة البالغة ، ليس الاّ من فعل ذلك الخالق الجليل •

نعم ان القوى العمياء والطبيعة الصماء والاسباب التائهة المشتتة ، لا يمكن لها ان تمد أيديها وتتدخل في ذلـك الميزان الدقيـق الحساس ، بالمهارة البالغة ، والانتظام الحكيم لتلك الصنعة ، بل هي تستخدم وتسخّر بأمر رباني في الافعال الربانية ، فهي ذات مفعولية وقبول ، بل ليست الا ستائر وحجبا مسخرة بيده سبحانه ٠

وهكذا فكما تشير هذه الآيات الثلاث الى حقائق ثلاث ، وتدل كل منها على التوحيد بثلاث نكات ، فهناك ما لا يُحد من الأفعال الربانية ومـا لا يحد من تجليات التصرفات الربانية ، تدل متفقة على الواحـد الأحـــد وتشهد شهادة صادقة على ذات الواحد الأحد ذي الجلال والاكرام ٠

* * *

٢٦-٢٧

الحقيقة الثالثة : حقيقة الايجاد والابداع

اي ايجاد الموجودات ـ وبخاصة النباتات والحيوانات ـ بكثرة مطلقة ، في سرعة مطلقة ، مع اِنتظام مطلق ٠٠٠ وخلق المخلوقات بسهولة مطلقة ، في غاية الحسن والجمال مع المهارة المتقنة والانتظـام الكامل ٠٠٠ وابداع المصنوعات في غاية النفاسة والجودة والتمييز الواضح مع منتهى الوفـرة وغاية الاختلاط والامتزاج ٠

نعم ، ان ايجاد الاشياء في منتهى الكثرة بمنتهى السرعة ، وفي منتهى السهولة واليسر بمنتهى الاتقان والمهارة وبالدقـة والانتظـام ، وفي منتهى الجودة وغلاء القيمة والتميز مع منتهى الوفرة والمبذولية دون خلط أو لبس أو اختلال رغم كثافة الفروق والتباينات ٠٠٠ لا يمكن أن يتم هذا الايجاد ـ ولن يتم ـ اِلاّ بقدرة قادر واحد أحد لا يؤوده شيء ولا يصعب عـلى قدرتـه شيء ٠

نعم ، ولكي ندرك ما نراه ونشاهده بأعيننا ينبغي أن تكون النجوم والذرات على حد سواء أمـام تلك القـدرة ٠ وأكبر الأشـياء كأصغرهـا والافراد غير المحدودة للنوع كالفرد الواحـد منـه ، والكل المحيط العظيم كالجزء الصغير الخاص ، واحياء الأرض الهائلة كاحياء شـجرة واحـدة ، وانشاء الشجرة الشاهقة كايجاد بذرة متناهية في الصغر ٠

وبهذا السر المهم الذي تتضمنه هذه المرتبة التوحيدية ، وهذه الحقيقة الثالثة وكلمة التوحيد ـ أي:كون أكبر « كلّ » كأصغر « جزء » أمام القدرة الربانية دون أن يكون أدنىفرق بين الكثير والقليل ـ ينكشفالاسرار الدقيقة

الخفية للقرآن الكريم ، وببيان وتوضيح هذه الحكمة المحيرة واللغز العظيم الذي هو خارج طور العقل ـ مع أنه أهم أساس للاسلام ، وأعمق مدار للايمان واللبنة الكبرى للتوحيد ـ يُدرك أخفى الأسرار المجهولة لحقيقة خلق الكون التي عجزت الفلسفة عن ادراكها ، فألف شكر وشكر ، وألف حمدٍ وثناء لخالقي الرحيم أرفعه بعدد حروف رسائل النور ، أن تمكنت (رسائل النور) حلّ هذا السر العجيب ، وكشفت هذا الذي يظنه الجاهل غموضاً غريباً ، بل أثبتته ببراهين قاطعة · وبخاصة في بحث « وهو على كل شيء قدير » الموجود في نهاية « المكتوب العشرين » وفي بحث « الفاعل مقتدر » من « الكلمة التاسعة والعشرين » (رسالة الملائكة والروح والآخرة) فأثبتت سعة القدرة الالهية وطلاقتها بالبراهين القاطعة بدرجة حاصل ضرب الاثنين في اثنين يساوي أربعاً وذلك في مراتب « الله أكبر » من « اللمعة التاسعة والعشرين » التي كتبت باللغة العربية · ·

فمع إحالة الايضاح والتفصيل الى هناك الاّ انني أردت هنا أن أبين بياناً مجملاً ـ كفهرست مختصر ـ تلك الاسس والأدلة التي تعالج هذا السر وتكشفه وتوضحه ، ومن ثم الاشارة الى ثلاثة عشر سراً بثلاث عشرة مرتبة ، فشرعت بكتابة السر الاول والثاني ، ولكن مانعين قويين مادّيين ومعنويين حالا ـ مع الأسف ـ بيني وبين كتابة بقية الاسرار في الوقت الحاضر ·

السر الاول :

اذا كان الشيء ذاتياً ، فان ضده لا يكون له عارضاً ، لأنه يصبح هناك « اجتماع الضدين » وهو محال · فبناءً على هذا السر :

ما دامت القدرة الالهية ذاتية وهي الضرورة اللازمة للذات المقدسة ، فلا يمكن ان يكون العجز الذي هو ضد تلك القدرة عارضاً للذات القادرة · وما دام وجود المراتب في الشيء الواحد يكون بتداخل ضد ذلك الشيء فيه ،

مثلما تتكون مراتب القوة والضعف في الضياء بمداخلة الظلمة ، ودرجات الارتفاع والهبوط للحرارة بتداخل البرودة ، ومقادير الشـدة والضعف للقوة بمتابلة المقاومة وممانعتها لها ، فلا يمكن اذاً إحتواء تلـك القـدرة الذاتية على مراتب ٠٠ فهي تخلق الأشـياء وتوجدها كالشيء الواحد ٠ فما دامت تلك القدرة الذاتية متجردة من المراتب ومن الضعف ومن النقص ، فلا جرم أن لا يقف أمامها مانع ولا يصعب عليها أي ايجاد ٠ وما دامت لا يشق عليها شيء فلابد أن يكون لديها ايجاد الحشر الاعظم كسهولة ايجاد الربيع ، وايجاد الربيع كبساطة ايجاد شجرة واحـدة ، وايجـاد الشجرة كيسـر إيجاد زهرة واحدة ، وأنها تقوم بالايجاد بهذه السهولة واليسـر كما تقوم بها في أدق ما تكون الصنعة والاتقان ٠ فنرى انها تخلق الزهـرة باتقـان وصنعة الشجرة وبأهميتها وقيمتها ، وتخلق الشجرة باعجاز صنع الربيـع الهائل ، وتخلق الربيع بشمولية وجامعية الحشر واعجازه ، هكذا تخلق ، وهكذا نشاهد خلقها أمام أعيننا ٠

وقد أثبتت (رسائل النور) ببراهين كثيرة قاطعة قوية أنه : إن لم يُسند الخلق الى الوحدة والوحدانية فسيصبح خلق زهرة واحـدة صعباً كصعوبة خلق شجرة بل أصعب ، ويصبح خلق الشجرة أعقد من خـلق الربيع ، وفوق ذلك سيسقط جميعها من حيث القيمة والاتقان في الصنعة ، فالكائن الذي يُخلق في دقيقة واحدة سيُصنع في سنة بل يستحيل صنعـه بالمرة ٠ فبناءً على هذا السر :

فان جميع الأثمار والأزهار والأشجار والاحياء الدقيقة المرتبطة بها ، تخرج الى الوجود في غاية الوفرة والكثرة مع أنها في منتهى الجودة والنفاسة، وتظهر في منتهى السرعة واليسر مع أنها في غاية الاتقان والصنعة ، فتخرج الى الوجود بانتظام ، مؤديةً وظائفها وتسبيحاتها ، وموكلة بذورها بديلة عنها ، ماضية هي في سبيلها ٠

السـر الثـاني :

انه استناداً الى سر النورانية والشفافية والطاعة ، فان شمساً واحدة ـ بتجلٍ من القدرة الذاتية ـ تشع ضياء الى مرآة واحدة وهي في الـوقت نفسه ـ بالأمر الالهي ـ تبث الضياء نفسه والحرارة نفسها ـ بالفعاليـة الواسعة لتلك القدرة المطلقة ـ الى مرايا صافية وأشياء براقة وقطرات لامعة غير محدودة • فأمامها القلة والكثرة سواء ، ولا فرق بينهما •

واذا نطق ناطق بكلمة واحدة ، فان هذه الكلمة تدخل بسهولة تامة الى اذن شخص ـ استناداً الى السعة المطلقة للخلاقية ـ فهي كذلك تدب في أذهان ملايين الاشخاص وآذانهم ببساطة ويسر بالأمر الرباني ، فأمامها آلاف المستمعين والمستمع الواحد سواء ولا فرق بينهما •

ومثلما تنظر العين الى مكان واحد وآلاف الامكنة بسهولة كاملة فـان نوراً أو نورانياً روحانياً ـ كجبريل عليه السلام ـ في الوقت الذي يشاهد ويذهب ويحضر في مكان واحد بكل سهولة ـ استناداً الى كمال سعة الفعالية الربانية في تجلي الرحمة ـ فهو كذلك يشاهد ، ويذهب ، ويحضر ـ بالقدرة الالهية ـ بالسهولة نفسها في آلاف الاماكن • فلا فرق هنا بين القلة والكثرة•

وهكذا الدقرة الذاتية الأزلية ـ ولله المثل الاعلى ـ نظراً لكونها ألطف نور وأخصه ، بل هي نور الأنوار كلها ، ونظراً لكون ماهيـة الأشـياء وحقائقها ، وأوجه الملكوتية فيها شفافة لماعة كالمرايا ، ونظراً لأن كل شيء ـ ابتداءً من الذرات الى النباتات والى أنـواع الأحيـاء قاطبة والى النجـوم والشموس والاقمار ـ تابع ومنقاد ومطيع على أتم وجه لحكم تلك القـدرة الذاتية ومسخر ومجند وخاضع خضوعاً مطلقاً لأوامر تلك القدرة الأزلية • فلا ريب انها تنشيء الأشياء غير المحدودة وتخلقها كالشيء الواحد ، وتحضر عند كل شيء في كل آن وفي كل مكان • فلا يمنع شيء شيئاً أمامها ، فالكبير والصغير ، والكثير والقليل ، والجزء والكل ، سواء عندها • لا تعجز عن

شيء ولا يصعب عليها شيء ٠

واستناداً الى أسرار الانتظام والموازنة وامتثال الأوامر ، والطاعة للاحكام ـ كما ذكرت في الكلمة العاشرة (رسالة الحشر) والتاسعة والعشرين (الملائكة وبقاء الروح والحياة الآخرة) ـ فان سفينة ضخمة جداً يمكن أن تدار وتسيَّر بسهولة إدارة طفل لدميته بأصبعه ، وأن آمراً مثلما يسوق جندياً واحداً بأمره : « هجوم » ، فانه بالأمر نفسه يسوق جيشاً منتظماً مطيعاً على الحرب ٠ واذا كان هناك جبلان في حالة موازنة على طرفي ميزان عظيم حساس جداً ثم أوتي بميزان آخر ووضع في كل من كفتيه بيضة في معادلة تامة ٠ فمثلما ان جوزة واحدة يمكنها ن ترفع إحدى الكفتين الى الأعلى والاخرى الى الاسفل ٠ كذلك فان تلك الجوزة نفسها تستطيع ـ بقانون الحكمة ـ أن ترفع احدى كفتي الميزان العظيم الحامل للجبل الى قمة جبل وتنزل الاخرى الى قعر الوادي ٠

فكما أن الأمر هكذا ٠ فكذلك الأمر في القدرة الربانية حيث أنها مطلقة غير متناهية ، وهي نورانية ، وهي ذاتية وهي سرمدية ، وتوجد معها الحكمة المطلقة والعدالة التامة اللتان هما منشأ جميع الانتظام والانظمة والموازنة ومنبعها ومدارها ومصدرها ، فالجزئي والكلي والكبير والصغير من أي شيء ومن كل شيء مسخر لحكم تلك القدرة ومنقاد لتصرفها ٠٠ لذا فان تلك القدرة تسيِّر النجوم والسيارات بسهولة ادارة الذرات وتحريكها ؛ وذلك بسر نظام الحكمة ٠ وكما أنها تحيي الذبابة في الربيع بسهولة الى ميدان منها فهي تسوق جميع طوائف الحشرات والنباتات والحيوانات الى ميدان الحياة وتحييها بسهولة نفسها وبالأمر نفسه ، وبالكحكمة المتضمنة فيها وبسر الميزان ٠ وكما انها تنبت شجرة في الربيع بسرعة فائقة فتنفخ الحياة في جذورها وجذوعها التي هي كالعظام ، فهي تحيي بتلك القدرة المطلقة الحكيمة العادلة وبالأمر نفسه هذه الأرض الهائلة التي هي كجنازة ضخمة ، مثلما أحيت تلك الشجرة في الربيع ببساطة ، موجدةً مئات الآلاف من

أنواع الامثلة والنماذج الدالة على الحشر والنشور ٠

وكما انه سبحانه يحيي الأرض بأمر تكويني فانه بأمره الجليل :

« إن كانت الا صيحةً واحدةً فاذا هم جميعٌ لدينا مُحضرون » (يس /٥٣) ٠ -

« وما أمر الساعة إلا كلمح البصر او هو أقرب » (النحل/٧٧) ٠

« ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُم إلا كنفسٍ واحدة » (لقمان/٢٨) ٠

يأتي بجميع الانس والجن وما هو حيواني وروحاني وملائكي ، يأتي بهم جميعاً بالأمر نفسه وبالسهولة نفسها الى ميدان الحشر الأكبر وأمام الميزان الأعظم ، فلا يمنع فعل فعلاً قط ٠

هذا وقد أجّلتُ - وارادتي راغمة - كتابة بقية الاسرار من السر الثالث الى الثالث عشر الى وقت آخر ٠

★ ★ ★

٢٨

الحقيقة الرابعة : كليّة الموجودات وظهورها معاً

ان وجود الموجودات وظهورها معاً ، متداخلة ، مشابهاً بعضها البعض الآخر ، وكون بعضها مثالاً مصغراً للآخر ، او نموذجاً أكبر له ، وكون قسم منها كلاً وكلياً وبقية الأقسام اجزاؤه وافراده ، مع التشابه في ختم الفطرة وسكتها ، والعلاقة الوثيقة في نقش الصنعة والاتقان ، والتعاون فيما بينها ، واكمال كل منها وظيفة الآخر الفطرية ... وأمثال هذه من النقاط العديدة لجهة الوحدة الكثيرة في الموجودات ، تعلن التوحيد بداهة ، وتثبت: أن صانعها واحد أحد ، وتظهر ـ من جهة الربوبية المهيمنة ـ أن الكائنات قاطبة لا تقبل التجزئة والانقسام . فهي بحكم الكل والكلّي .

مثال ذلك : أن ايجاد أفراد لا يحصرها العد لأربعمائة ألف نوع من أنواع النباتات والحيوانات في الربيع ، وادارتها معاً في آن واحد ، وعلى نمط واحد ، رغم تداخل بعضها في البعض الآخر ، من دون خطأ أو خلل ، واعاشتها بكمال الحكمة وحسن الصنعة والاتقان .. وكذا خلق أفراد غير محدودة لأنواع الطيور ابتداءً من مثالها المصغر ـ الحشرات ـ الى مثالهـا الأكبر ـ الصقور ـ ومنحهـا القـدرة على السياحة والتجوال في الجـو ، وتجهيزها بأجهزة تساعدها على المعيشة والحركة والتنزه ونشر البهجة في الجو ، ومن ثم وضع سكة الصنعة المعجزة وختمها في وجوهها ، وتركيب ختم الحكمة في أجسامها بكل تدبير ، وايداع طغراء الأحدية في ماهيتها بكل إعتناء وتربيـة .. وكـذا امداد خلايا الجسم بذرات الطعـام ، وامـداد الحيوانات بالنباتات ، وامـداد الانسـان بالحيوانات ، وامـداد الصغـار

العاجزين بحنان الوالدات ورعايتهن ، وجعل هذا السعي والامداد والمعاونة تتم في اطار حكمة تامة وضمن رحمة كاملة ٠٠ وكذا التصرف بالنظام نفسه والابداع نفسه ، وبالفعل نفسه والحكمة نفسها ، ابتداءً من مجرة درب التبانة ـ من الدوائر الكونية الهائلة ـ الى المنظومة الشمسية ، والى العناصر الأرضية بل حتى الى حدقة العين وأوراق براعم الاوراد وأغلفة عرانيس الذُرة والبذور الكامنة في البطيخ ـ مثلا ـ ، كأنها دوائر متداخلة بعضها في البعض الآخر وبحكم الجزئي والكلّي ٠٠٠ كل ذلك ليثبت ـ بداهة ـ ان الذي يقوم بهذه الأفعال انما هو واحد أحد ، وضع سكته وختمه على ناصية كل شيء في الوجود ، وكما لا يحده مكان فهو حاضر في كل مكان ، فهو قريب الى كل شيء ، رغم أن كل شيء بعيد عنه ، كالشمس ٠ وكما يسهل عليه أصعب أمور الدوائر الكونية العظيمة والمنظومة الشمسية ، لا تخفى عليه أيضاً أصغر أمور الكريات في الدم ، وأدق الخواطر القلبية ٠ فلا شيء يبقى خارج ادارته ودائرة تصرفه ٠ ومهما كان الشيء كبيراً أو كثيراً فهو سهل ويسير عليه كأصغر شيء وأقله ، فيّخلق الحشرة الصغيرة في نظام الصقر واتقانه ٠ ويخلق الزهرة في ماهية الشجرة وانتظامها ، ويخلق الشجرة في صورة الحديقة وابداعها ، ويخلق الحديقة في روعة الربيع وزهوه ٠ ويخلق الربيع في عظمة الحشر وهيبته ، وهو يقدّم الينا أكثر الأشياء اتقاناً وأغلاه ثمناً بسعر بخس زهيد بل يحسنه إلينا إحساناً ، ومن ثم لا يطلب منا الا : « بسم الله » و « الحمد لله » أي أن الثمن المقدّر لتلك النعم والسعر المقبول لها ، انما هو « بسم الله الرحمن الرحيم » ابتداءً و « الحمد لله » ختاماً ٠

نكتفي بهذا القدر نظراً لقيام رسائل النور بايضاح هذه الحقيقة الرابعة واثباتها بتفصيل أكثر ٠

ورأى صاحبنا السائح في المنزل الثاني :

٢٩

الحقيقة الخامسة : الانتظام الاكمل ووحدة المواد

أي وجود الانتظام الاكمل في مجموع الكون وأركانه وأجزائه بل في كل موجود فيه ، وكون المواد – التي هي محور إدارة هذه المملكة الواسعة وسيرها المتعلقة بهيئتها العامة وبموظفيها – واحدة ، وكون الاسماء والافعال – التي تتصرف في تلك المدينة العظيمة والمحشر العجيب – محيطة وشاملة لكل شيء . فالاسم هو نفسه ، والفعل هو نفسه ، والماهية هي نفسها ، في كل مكان ، رغم تداخل بعضه في البعض الآخر . وان العناصر والانواع التي هي الأساس في بناء ذلك القصر الفخم وفي إدارته وفي اضفاء البهجة عليه ، قد أحاطت سطح الأرض بانتشارها في اكثر بقاعها ، مع بقاء العنصر نفسه ، والنوع نفسه واحداً ، وذا ماهية واحدة في كل مكان رغم تداخل بعضه في البعض الآخر ... كل ذلك يقتضي بداهة ، ويدل ضرورة ويشهد ويري :

ان صانع هذا الكون ومدبّره ، وان سلطان هذه المملكة ومربيها ، وان صاحب هذا القصر وبانيه ، واحد ، احد ، فرد ، ليس كمثله شيء ، لا وزير له ولا معين ، لا شريك له ولا ند ، منزّه عن العجز ، متعال عن القصور .

نعم أن الانتظام التام انما هو دليل بذاته على الوحدة ؛ إذ يستدعي منظماً واحداً ، فلا يسعه الشرك الذي هو محور المجادلة والنقاش .

فما دام هناك انتظام حكيم ودقيق في الكون كله – كلياً كان الشيء أم جزئياً – ابتداءً من دوران الارض اليومي والسنوي ، الى سيماء الانسان ،

والى منظومة شعوره ، والى دوران الكريات الحمر والبيض وجريانهما في الدم ، فلابد أنه لا يمكن لشيء أن يمد يده ويتدخل قصداً وايجاداً سوى القادر المطلق والحكيم المطلق ، بل يبقى كل شيء سواه منفعلاً ومتلقياً ومظهراً للقبول ليس الا ·

وما دام القيام بالتنظيم ومنح النظام وبخاصة تعقّب الغايات وتتبعها وتنظيمها بابراز المصالح ، لا يكون الا بالعلم والحكمة ، والا بالارادة النافذة والاختيار ، فلابد ان هذا الانتظام الذي يدور مع الحكمة ، وهذه الأنواع المتنوعة من الانتظام في المخلوقات غير المحدودة التي تتراءى أمام أنظارنا والدائرة حول المصالح ، يدل بداهة ويشهد بكل حال ان : خالق هذه الموجودات ومدبرها واحد ، وهو الفاعل ، وهو الذي بيده الاختيار ، فكل شيء يخرج الى الوجود إنما يخرج بقدرته هو ، ويأخذ وضعاً خاصاً بارادته هو ، ويتخذ صورة منتظمة باختياره هو ·

وما دام السراج الوهاج لهذه الدنيا ـ التي هي مضيف ـ واحداً ، وان قنديلها المتدلي لعدّ الأيام واحد ، وان معصراتها ذات الرحمة واحدة ، وان مطبخها ذا الموقد واحد ، وان شرابها الذي يبعث الحياة واحد ، وان مزرعتها المحمية واحدة ·· واحد ·· واحد ·· واحد الى ألف وواحد ، فلابد أن هذه الآحاد الواحدة تشهد بداهة ان صانع هذا المضيف وصاحبه واحد ، وهو كريم لضيوفه في منتهى الكرم والسخاء حتى أنه يسخر كبار موظفيه هؤلاء ويجعلهم خدماً طائعين لتأمين راحة ضيوفه الأحياء ·

وما دامت واحدةً تلك الاسماء الحسنى والشؤون الالهية والافعال الربانية التي تتصرف في الكون والتي تظهر تجلياتها ونقوشها واثارها في كل أنحاء العالم ·· فالأسماء الحسنى « الحكيم ، المصور ، المدبر ، المحيي ، المربي » وامثالها هي نفسها في كل مكان ·· وشؤون « الحكمة والرحمة والعناية » وامثالها هي نفسها في كل مكان · وأفعال « التصوير والادارة

والتربية » وامثالها هي نفسها في كل مكان ، وكل منها متداخل بعضه في البعض الآخر ، وكل منها في أسمى مرتبة وأوسع إحاطة وهيمنة ، كما أن كلا منها يكمل نقش الآخر حتى لكأن تلك الاسماء والأفعال تتحد مع بعضها اتحاداً ، فتصبح القدرة عين الحكمة والرحمة ٠ وتصبح الحكمة عين العناية والحياة ٠ فعندما يظهر ـ مثلاً ـ تصرف اسم المحيي في شيء ما ، يظهر تصرف اسم الخالق والمصور والرزّاق واسماء أخرى كثيرة كذلك في الوقت نفسه ، في كل مكان وبالنظام نفسه ، فلابد ولا محالة ان ذلك يشهد ـ بداهة ـ على ان مسمّى تلك الاسماء المحيطة ، وفاعل تلك الأفعال الشاملة والظاهرة في كل مكان بالطراز نفسه ، إنما هو فاعل واحد أحد فرد ٠٠٠ آمنا وصدّقنا ! ٠

وما دامت العناصر التي هي مكونات المصنوعات وجواهرها وأسسها ، تحيط سطح الأرض وتتوزع عليه ، وكل نوع من أنواع المخلوقات ـ الحاملة لأختام مختلفة تظهر الوحدانية ـ قد انتشر على ظهر الارض واستولى عليه ، رغم كونه نوعاً واحداً فلابد أن تلك العناصر بمشتملاتها ، وتلك الانواع بأفرادها ، إنما هي مُلك لواحد ، ومصنوعات مأمورة لدى ذلك الواحد القادر الذي يستخدم تلك العناصر الضخمة المستولية بقدرته المطلقة كأنها خدام مطيعون ، ويسخّر تلك الأنواع المتفرقة ـ في كل جهة من الأرض ـ كأنها جنود نظاميون ٠٠٠ وحيث ان (رسائل النور) قد أثبتت هذه الحقيقة وأوضحتها ، فنحن نقتصر عليها بهذه الاشارة القصيرة٠

فلقد أحسّ صاحبنا السائح المسافر بنشوة إيمانية بعد ان اكتسب الفيض الايماني والتذوق التوحيدي من فهمه لهذه الحقائق الخمس فأنشأ يترجم ملخصاً حسياته ومشاهداته مخاطباً قلبه :

انظر الى الصفحة الملونة الزاهية لكتاب الكون الوسيع ٠
شاهد كيف جرى قلم القدرة وصوّر البديع ٠٠

لم تبق نقطة مظلمة لأرباب الشعور ..
لكأن الرب قد حرّر آياته بالنور .
واعلم أيضاً بأن :
هذه الابعاد غير المحدودة أوراق كتـاب العـــالم
وهذه العصور غير المعدودة سطور حادثات الدهر
في لوح الحقيقة المحفوظ قد سطّر :
لفظة مجسمة حكيمة كل موجود في العالم .

وانصت كذلك :
كل شيء في الوجود ينطق ويردد معاً
لا إله إلاّ الله . ويلهج دوماً كل آن : يا حق
فالكل ينطق والجميع يهتف : يا حي(١) .

نعـم ؛
وفي كل شيء له آيـة　　　تدل على أنـه واحدٌ .

وهكذا صدّق قلب السائح نفسه ، وقالا معاً : نعم ، نعم .

هذا وقد جاء في المنزل الثاني من الباب الثاني من المقام الأول إشارة قصيرة الى ما شاهده سائح الكون والضيف فيه مـن الحقائق التوحيديـة الخمس ، وهي كالآتي :

---

(١) جاءت الفقرات السابقة منظومة في الأصل . ـ المترجم ـ

لا إله الا الله الواحد الأحد الذي دل على وحدته في وجوب وجوده : مشاهدة حقيقة الكبرياء والعظمة في الكمال والاحاطة . وكذا مشاهدة حقيقة ظهور الأفعال بالاطلاق وعدم النهاية ، لا تقيدها الا الارادة والحكمة . وكذا مشاهدة حقيقة ايجاد الموجودات بالكثرة المطلقة في السرعة المطلقة ، وخلق المخلوقات بالسهولة المطلقة في الاتقان المطلق ، وابداع المصنوعات بالمبذولية المطلقة في غاية حسن الصنعة وغلو القيمة . وكذا مشاهدة حقيقة وجود الموجودات على وجه الكل والكلية والمعية والجامعية والتداخل والمناسبة . وكذا مشاهدة حقيقة الانتظامات العامة المنافية للشركة . وكذا مشاهدة وحدة مدارات تدابير الكائنات الدالة على وحدة صانعها بالبداهة . وكذا وحدة الاسماء والافعال المتصرفة المحيطة ، وكذا وحدة العناصر والانواع المنتشرة المستولية على وجه الارض .

* * *

••

ثم حينما كان ذلك السائح في العالم يجول في العصور صادف مدرسة مجدد الألف الثاني الامام الرباني أحمد الفاروقي فدخلها وبدأ يصغي إليه ، كان الامام يقول في ثنايا درسه :

« ان اهم نتيجة للطرق الصوفية كافة هي انكشاف الحقائق الايمانية وانجلاؤها ، وان وضوح مسألة ايمانية واحدة وانكشافها لهو أرجح من الف من الكرامات » • وكان يقول أيضاً : « لقد قال بعض العظماء في السابق: انه سيأتي أحد من المتكلمين ومن علماء علم الكلام وسيثبت بدلائل عقلية اثباتاً واضحاً جميع الحقائق الايمانية والإسلامية ويا ليتني أنا ذلك الشخص ، بل ربما هو أنا(١) • حيث ان الايمان والتوحيد هما أساس جميع الكمالات الانسانية وجوهرها ونورها وحياتها ، وان دستور « **تفكر ساعة خير من عبادة سنة** » يخص التفكر الايماني ، وما الذكر الخفي في الطريقة النقشبندية وأهميته الا نوع من **أنواع هذا التفكر السامي** • » • هكذا كان الامام يعلّم ، والسائح ينصت ويصغي **بكل إهتمام • ثم عاد الى** نفسه وخاطبها :

لما كان هذا الامام الهمام يقول كذا ، وان إزدياد قوة الايمان ولو بمقدار ذرة هو **أثمن من أطنان** من كسب المعارف والكمالات ، بل هو الذ وأطيب مائة مرة من حلاوة الأذواق والوجد •

---

(١) لقد أثبت الزمن ان ذلك الشخص ليس شخصاً ولا رجلاً انما هو (رسائل النور) ، وربما شاهد أهل الكشف في كشفياتهم (رسائل النور) في شخص مترجمها ومبلّغها الذي لا قيمة له ولا أهمية ، فقالوا انه شخص •

وحيث أن الاعتراضات والشبهات المتراكمة حـول الأيمان والقرآن ـ التي تثيرها فلاسفة أوروبا منذ ألف سنة ـ قد وجدت سبيلها الى قلوب المؤمنين ، فيهاجمون بها أهل الايمان ، ويحاولون بذلـك زعزعـة الاركان الايمانية التي هي أساس السعادة الأبدية ، ومدار الحياة الباقية ، ومفتاح الجنة الخالدة · فلابد إذاً ـ وقبل كل شيء ـ أن نزيد إيماننا قوة ونحوّله من ايمان تقليدي الى ايمان تحقيقي ·

فهيا بنا أيتها النفس لنسرْ قُدماً مع هذه المراتب الايمانية التسـع والعشرين التي وجدناها ، والتي كل منها راسخة رسوخ الجبل الاشـم قاصدين إيصالها الى عدد الأذكار والتسبيحات المباركة للصلاة وهو الثلاث والثلاثين · فلنطرق باب الادارة والاعاشة الربانية في عالم الأحياء الذي يترقرق عبراً وعظـة ، ونفتحه بمفتـاح (**بسم الله الرحمـن الرحيـم**) كي نرى المنزل الثالث ونشاهد ما فيه ··· فطرق السـائح بـاب المنزل الثالث الذي هو محشر العجائب ومجمع الغرائب ، طرقه بكل استرحام ورفق ولطف ، ومن ثم فتحه بـ « **بسم الله الفتّاح** » فبدا له المنزل الثالث · ودخل فيه ، ووجد أن هناك أربع حقائق عظمى محيطة تنـير ذلـك المنزل وتكشف التوحيد وتبينها كالشمس الساطعة ·

* * *

٣٠

الحقيقة الاولى : وهي حقيقة « الفتـاحية »

أي انفتاح ما لا يُحد من الصور المنتظمة المتنوعة المختلفة بتجلي اسم « الفتـاح » من مادة بسيطة جداً ، وانكشافها معاً في كل طرف من انحـاء العالم ، وفي آن واحد ، وبفعل واحد ٠

نعم ، كما ان القدرة الفاطرة قـد فتحت الموجـودات المختلفة غـير المحدودة ، في رياض الكائنات كتفتح الازهـار ؛ فأعطت باسم « الفتـاح » كلاً منها طرزاً منتظماً يناسبه ، وشخصية منفردة تميزه ٠ فقد منحت أيضاً ـ بشكل أكثر اعجازاً ـ صورة موزونة ، مزيّنة ، ومتميزة ، لكل ذي حياة من أربعمائة ألف نوع من أنواع الأحياء في حديقة الأرض ، وهي في غاية الاتقان والحكمة ٠ ان فتح الصور هذا أقوى دليل على التوحيد ، وأعجب معجـزة للقـدرة الالهية ، حسب ما تفيـده الآيـات الـكريمة : ﴿ يخلقكم في بطون امهاتكم خَلْقاً من بعدِ خَلْقٍ في ظُلُمات ثلاث ذلكُم اللهُ ربُّكُم له المُلكُ لا إله إلاّ هو فأنّى تُصرَفون ﴾ (الزمر/٦) ٠

﴿ إن الله لا يَخْفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء ٠ هُوَ الذي يُصوِّرُكم في الأرحـامِ كيفَ يشاء لا إله إلاّ هُوَ العزيـز الحكيم ﴾ (آل عمران/٥ ، ٦) ٠

فبناءً على هذه الحكمة ، ونظراً لافاضة (رسائل النور) في بيـان حقيقة فتح الصور بصور متنوعة (وبخاصة في المرتبة السادسة والسابعة من الباب الأول من هذه الرسالة) ٠ فنحن نحيل القارىء الـكريم اليهـا ونكتفي هنا بالقول :

لقد ظهر نتيجة الدراسات المتواصلة والبحوث الدقيقة لعلمي النبات والحيوان وبشهادتهما ، أن فتح الصور هذا له من الاحاطة والشمول والاتقان ما لا يمكن ان يملك هذا الفعل الجامع المحيط سوى الواحد الأحد القادر المطلق الذي يرى كل شيء ، ويصنعه ؛ ذلك لأن فعل فتح الصور هذا يحتاج الى وجود منتهى الحكمة ، ومنتهى الدقة ، ومنتهى الاحاطة ضمن قدرة مطلقة تهيمن في كل مكان وفي كل آن . فقدرة كهذه لا يملكها الا الواحد الأحد الذي بيده مقاليد الأرض والسماوات .

نعم فكما جاء في الآية الكريمة المذكورة « **فِيْ ظلمات ثلاث** » .
فان خلق الانسان ، وفتح صوره ، واحدة واحدة ، في أرحام الوالدات بميزان وزينة ، وبانتظام وتميّز ، دون خلط أو اختلاط ، أو خطأ أو نقص ، من مادة بسيطة دليل قاطع على الوحدانية ، ومن ثم احاطة هذه الحقيقة ـ فتح الصور ـ وشمولها بالقدرة نفسها ، والحكمة نفسها ، والصنعة نفسها ، للناس كافة ، وللحيوانات كافة ، وللنباتات كافة ، على أرجاء الأرض كافة ، لهي أقوى برهان على الوحدانية ؛ ذلك لأن فعل الاحاطة هو بذاته وحدة واحدة لا يترك مجالاً للشرك .

ومثلما ان الحقائق التسع عشرة في الباب الأول قد شهدت (بوجودها) على وجوب وجود الخالق سبحانه ، فهي تشهد كذلك (باحاطتها) على الوحدة والوحدانية ..

والحقيقة التي رآها صاحبنا السائح في المنزل الثالث هي :

٣١

الحقيقة الثانية : وهي حقيقة « الرحمانية »

وهي تعني : ان هناك واحداً جعل لنا الأرض ـ كما هي ظاهرة أمام أعيننا ـ مضيفاً رائعاً ، وغمر وجهها بآلاف هدايا الرحمة ، وفرش لنا بتلك الرحمة مأدبة تحوي مئات الآلاف من مختلف الأطعمة اللذيذة المعدّة على تلك المائدة ، وجعل لنا جوف الارض ـ برحمته وحكمته ـ مخزناً جامعاً عظيماً لآلاف إحسانه وآلائه القيمة • ويقوم بتربيتنا تربية في منتهى الرحمة ، بتحميله الأرض من عالم الغيب في دورتها السنوية ـ كأنها باخرة تجارية ـ بمئات الآلاف من أجود أنواع صنوف اللوازم الحياتية للانسان وأجملها ، ويرسلها ـ كل سنة ـ كأنها سفينة مشحونة أو قطار معبأ ، فكل ربيع فيها بمثابة قطار تقل أرزاقنا وملابسنا • ولأجل أن ننتفع من تلك الهدايا والنعم كلها فقد وهبنا المئات بل الآلاف من الأرزاق والحاجات والرغبات والمشاعر ، والحواس ••

نعم ، لقد وضح في « الشعاع الرابع » الذي يشرح الآية الكريمة [حسبنا الله ونعم الوكيل] ، وأثبت هناك انه سبحانه قد وهبنا معدة ـ أي معدة ـ بحيث نستطيع بها هضم أطعمة غير محدودة والتلذذ بها • وأحسن الينا سبحانه حياة ـ أيّ حياة ـ بحيث نستفيد بحواسها نعماً غير محدودة مبثوثة في ارجاء هذا العالم المشهود الكبير وكأنه سفرة مفروشة للنعم • وأكرمنا سبحانه بانسانية ـ أي انسانية ـ بحيث نتذوق بآلاتها العديدة ـ كالعقل والقلب ـ من هدايا غير متناهية لعالم المادة ولعالم المعنى ما نتذوق • وقد علّمنا إسلاماً ـ أنعِم به من نور ـ بحيث يأخذ النور من خزائن غير متناهية لعالم الغيب ولعالم الشهادة ، وقد هدانا الى إيمانٍ

ـ أنعم به من نعمة ـ بحيث نستفيد به ونتنور بما لا يُحصر من أنوار عوالم الدنيا والآخرة وهداياهما ، فكأن هذه الكائنات قصر عامر منيف قد زيّن من لدن الرحمة الواسعة بأنفس الأشياء والموجودات ، وسلمت بيد الانسان مفاتيح خزائنه ومنازله التي لا تعد ولا تحصى ، وأودعت في فطرته جميع الاحتياجات والمشاعر اللازمة للاستفادة من كل ما في القصر ٠

فرحمة كهذه التي تحيط بالدنيا وبالآخرة معاً ، وبكل شيء ٠ لابد أنها تجلٍ من تجليات « الأحدية » في تلك « الواحدية »(١) ، أي كما ان إحاطة ضياء الشمس وشموله لجميع الاشياء المقابلة لها مثال بارز على «الواحدية» ، فان أخذ كل شيء شفاف ولماع ـ وفق قابليته ـ ضياء الشمس وحرارتها والألوان السبعة التي فيها وانعكاساتها ، مثال على « الأحدية » ؛ لذا فان الذي يرى ضياء الشمس المحيط للعالم يحكم بأن « شمس الأرض واحدة » ، وانه بمشاهدته إنعكاس ضياء الشمس ذي الحرارة من كل شيء براق ، حتى من القطرات ، يتمكن ان يقول بأحدية الشمس ، أي أنها قريبة من كل شيء بصفاتها ، فهي في مرآة قلب كل شيء ٠

فكما أن الأمر في المثال هكذا ـ ولله المثل الاعلى ـ فان إحاطة رحمة الرحمن ذي الجمال احاطة شاملة ، كالضياء لعموم الأشياء ، تظهر واحدية ذلك الرحمن وعدم وجود شريك له في أية جهة من الجهات ، وان وجود تجليات أنوار أكثر اسماء ذلك الرحمن ، ونوعاً من تجلٍ لذاته المقدسة في كل شيء ، ولا سيما في كل ذي حياة وبخاصة في الانسان ـ بما منحه

(١) (اعلم) ان الواحدية تدل على ان الاسم يُحيط بكل شيء ٠ وان الأحدية تدل على ان كل شيء حي ، يشير الى كل اسم له تعلق بالكون ٠ فالتجلي بالواحدية باحاطته بكل الأشياء ، وبالأحدية بارائة كل شيء لكل الاسماء ٠

(المثنوي العربي النوري/ص٢٦٣)

الرحمن تحت ستار رحمته الواسعة الجامعة من حياة جامعة لكل فرد بحيث تمكنه ان يتوجه بها الى الكائنات كافة وينسج علاقات وروابط معها ـ يثبت أحدية ذلك الرحمن سبحانه ، وحضوره لدى كل شيء ، وأنه « هو » الذي يعمل كل شيء لأي شيء ٠

نعم كما ان ذلك الرحمن بواحدية تلك الرحمة وباحاطتها يظهر هيبة جلاله وبهائه على الكون كله ، على الأرض كلها ٠ فانه بتجلي أحديته في كل ذي حياة ، وبخاصة في الانسان ، وبجمعه جميع نماذج تلك النعم وغرزها في أعضاء ذلك الكائن الحي ، وفي أجهزته وتنظيمها ، وبجعله ذلك الفرد الواحد يتخذ ـ من جهة ـ الكائنات كافة دون تشتت كأنها مسكنه ومأواه ، يعلمن رأفة جماله ، ويعرّف تمركز أنواع احسانه في الانسان ٠

فلو أخذنا البطيخ مثالاً ، فان في كل بذرة من بذوره يوجد البطيخ نفسه ٠ فخالق تلك البذرة الواحدة لابد أنه هو خالق ذلك البطيخ ٠ اذ يستدرّ تلك النواة منه ويجمعها ويجعلها تتجسم بموازين علمه الخاصة وبقوانين حكمته التي تخصه ٠ فليس هناك شيء قط يستطيع أن يصنع تلك النواة سوى البديع الواحد لذلك البطيخ ، بل ان ايجاد غيره له محال أصلاً ٠ وبناءً على هذا فقد أصبحت الكائنات ـ بتجلي الرحمانية ـ بمثابة شجرة وبستان ، وغدت الأرض كالثمرة وكالبطيخ ، وصار ذوو الحياة والانسان كالبذرة ، لذا ينبغي ان يكون خالق أصغر الأحياء هو خالق الأرض قاطبة ورب أدق الاحياء هو رب الكائنات كافة ٠

نحصل مما سبق : ان ايجاد جميع الصور المنتظمة لجميع الموجودات وفتحها من مادة بسيطة ـ بحقيقة الفتاحية التي هي محيطة ـ يثبت الوحدة بداهة ٠ وان تربية جميع الاحياء ـ كذلك ـ التي أتت الى الوجود ودخلت الحياة الدنيا وبخاصة القادمين الجدد ـ بحقيقة الرحمانية التي تحيط بكل شيء ـ تربية في غاية الانتظام ، وايصال لوازم حياتها وتوفيرها لها دون

نسيان أحد ، وشمول الرحمة نفسها ووصولها الى كل فرد ، في كل مكان ، وفي كل آن ، تظهر الوحدة بداهة ، وتري الأحدية في تلك الوحدة كذلك ٠

وحيث ان (رسائل النور) هي من مظاهر إسمي « الحكيم » و « الرحيم » من الاسماء الحسنى وأن إيضاح لطائف « حقيقة الرحمة » وتجلياتها مع اثباتها قد ورد في مواضع عدة من الرسائل ٠ لذا إقتصرنا هنا على الاشارة اليها بهذه القطرة من ذلك البحر الواسع ٠

وما رآه صاحبنا السائح وشاهده في المنزل الثالث هو :



الحقيقة الثالثة : وهي حقيقة التدبير والادارة

أي حقيقة إدارة الاجرام السماوية وهي في منتهى السرعة والضخامة ، وادارة العناصر وهي في منتهى الاختلاط والتشابك ، وادارة المخلوقات الأرضية وهي في منتهى الحاجة والضعف ، إدارةً بكمال الانتظام والموازنة ، وجعل بعضها يسعى لمعاونة البعض الآخر ، رغم اختلاطها ، وامتزاجها ببعض أي هي حقيقة النظر في ادارة أمورها جميعاً وجعل هذا العالم العظيم كأنه مملكة كاملة ، ومدينة رائعة ضخمة ، وقصر منيف مزين ٠

وسنأخذ هنا صورة واحدة مقتضبة لجريان تلك الادارة وسريانها على صفحة واحدة من سطح الأرض وفي صحيفة واحدة في الربيع ، تاركين تلك الدوائر الجبارة والصحائف الواسعة التي تتقطر رحمانية ٠ نظراً لأنها قد وضحت واثبتت في رسائل مهمة من (رسائل النور) كالكلمة العاشرة ٠ (رسالة الحشر) وسنبينها بمثال ٠ هكذا :

اذا قام شخص عظيم خارق مثلاً بتشكيل جيش من اربعمائة ألف أمة وطائفة مختلفة ، ومن ثم قام بتوفير ما يخص كل جندي من تلك الأمم والطوائف المختلفة من الملابس وتأمين الأسلحة والارزاق والتعليمات والاعفاءات والخدمات المختلفة والمتنوعة جداً ، وجهّزهم بالأجهزة المختلفة دون أدنى نقص أو قصور أو خطأ ، وزوّدهم بها في أوانه دون أدنى تأخير أو خلط ، وبكمال الانتظام ، لابد أن تلك الادارة وهي في منتهى السعة والاختلاط والدقة والموازنة والكثرة والعدالة ليس الاّ من القدرة الخارقة لذلك القائد الخارق ، فلا يمكن لأي سبب أن يمدّ يده اليها ٠ إذ لو مدّ يده لأفسد تلك الموازنة ولاختلط الأمر ٠

فكما ان الأمر في هذا المثال هكذا : فاننا نشاهد بأعيننا كذلك ان يداً غيبية تنشىء في كل ربيع وتدير جيشاً مهيباً مركباً من أربعمائة ألف من مختلف الانواع من الاحياء ، ومن ثم في موسم الخريف ــ الذي هو نموذج القيامة ــ تُعفي ثلاثمئة ألف من مجموع الاربعمائة ألف نوع من وظائفها بصور الوفاة وباسم الموت ٠ وفي الربيع ــ الذي هو مثال الحشر والنشور ــ تنشىء ثلاثمائة ألف نموذج للحشر الأعظم في بضعة أسابيع بكمال الانتظام حتى انه سبحانه بعد أن يرينا في الشجرة الواحدة أربعة أنواع من الحشر المصغر بنشره الشجرة نفسها ، وأوراقها ، وأزهارها ، وأثمارها ، كما هي في الربيع الماضي ، فانه يظهر لنا ويثبت وحدانيته وأحديته وفرديته واقتداره المطلق ورحمته الواسعة ضمن كمال الربوبية والحاكمية والحكمة ، فيكتب سبحانه أمر التوحيد هذا بقلم القدر في صحيفة كل ربيع على وجه الارض وذلك بمنحه كل نوع وكل طائفة من ذلك الجيش السبحاني البالغ أنواعه أربعمائة ألف نوع ، ما يخصه من أرزاقه المختلفة ، وما يحتاجه من أسلحته الدفاعية المتنوعة ، وما يناسبه من ألبسته المتباينة ، وما يلائمه من تعليماته المتفاوتة واعفاثاته المختلفة ، وما يوافقه من جميع معدّاته ولوازمه فيمنحها سبحانه له كل ذلك بكمال الانتظام والميزان دون أدنى سهو أو خطأ ودون خلط أو نسيان ، ويهبها له في وقته المحدّد المعيّن ، من مصادر لا تخطر على بال ٠

وبعد أن طالع صاحبنا السائح صحيفة واحدة فقط في ربيع واحد فقط وشاهد فيها أمر التوحيد بجلاء ووضوح خاطب نفسه قائلاً :

إن الذي انشأ هذه الأنواع من الحشر في كل ربيع ، والتي تربو على الألوف ، وتفوق غرابةً الحشر الأكبر هو الذي وعد أنبياءه كافة بآلاف الوعود والعهود أن سيأتي بالحشر والقيامة للثواب والعقاب ، وهو اهون على قدرته من الربيع نفسه ، وضمّن آلاف الاشارات حول الحشر في

القرآن الكريم ، الذي يقرر صراحة في ألف من آياته الكريمة على وعوده سبحانه ووعيده .. فالذي يرتكب جحود الحشر أمام ذلك القدير الجبار والقهار ذي الجلال ، لا جرم أن عذاب جهنم لهو عين العدالة بحقه ...

هكذا حكم صاحبنا السائح . واطمأنت نفسه اليه فرددت هي أيضاً : آمنا .

وما شاهده سائح العالم في المنزل الثالث هو :

٣٣

الحقيقة الرابعة : وهي المرتبة الثالثة والثلاثون ، تلك هي حقيقـة الرحيميـة والرزاقيـة ٠

أي حقيقة إعطاء الرزق الى جميع ذوي الحياة وبخاصة ذوي الارواح وبخاصة العاجزين والضعفاء وبخاصة الأطفال والصغار على وجه الأرض كافة وفي جوفها وفي جوّها وفي بحرها ، اعطاءهم أرزاقهم كافة سواء المادية المـعّدية منها أو المعنوية القلبية بكل شفقة ورأفة وذلك من الأطعمة المعمولة من تراب بسيط يابس ومن قطع خشب جافـة جامـدة كالعظم وبخاصة إخراج ألطف تلك الأطعمة من بين فرث ودم وإخـراج كميات هائلـة من الأطعمة من بذرة واحدة صلدة كالعظم وهي لا تزن درهماً ؛ فاخراج كل ذلك في وقته المناسب وامام أنظارنا اخراجاً مقنناً دون نسيان أحد أو التباس أو خطأ لهو حقيقة الارزاق من لدن يد غيبية ٠ نعم ان الآية الكريمة :

(إنّ اللهَ هـو الـرزّاقُ ذو القـوةِ المتـين) (الذاريات /٥٨) التي تخصص الاعاشة والانفـاق وتحصرها في الحـق سـبحانه وتعالى ٠ وكذا الآية الكريمة :

(وما مِنْ دابّةٍ الا على اللهِ رِزقُها ويَعلَمُ مُستقرها ومستودعها كلٌّ في كتابٍ مُبين) (هود/٦) التي تأخذ أرزاق الناس والحيوان جميعها تحت تعهد الرب سبحانه وكفالته ٠ وكذا الآية الكريمة :

(وكأيّن من دابّةٍ لا تَحمِلُ رِزقَها اللهُ يَرزقُها وإيّاكُم وهو السميعُ العَليمُ) (العنكبوت /٦٠) التي تثبت وتعلن بان الله سـبحانه هو الذي يتكفل ـ كما هو مشاهد ـ بأرزاق المساكين والضعفاء والعاجزين وأمثالهم ممن لا يستطيعون أن يتداركوها ، فيرسلها اليهم من حيث لـم

يحتسبوا ، ومن مصادر لا تخطر لهم على بال ، بل من الغيب ، بل من غير شيء ، كأمثال الحشرات الموجودة في أعماق البحار التي تتغذى على غير شيء ، وجميع الصغار التي يأتيها رزقها من حيث لا تحتسب ، وجميع الحيوانات التي قد تكفل سبحانه بارزاقها ، وينفق عليها فعلاً من الغيب مباشرة ـ كما هو مشاهد في كل ربيع ـ حتى أولئك المفتونين بالاسباب فانه سبحانه يرسل ارزاقهم اليهم تحت ستار الأسباب ، فلا يرزقهم سواه.

فكما ان تلك الآيات الكريمة والظواهر المشاهدة تُري الرزاقية وتثبتها وتعلنها هكذا ، كذلك تبين آيات قرآنية كثيرة وشواهد كونية لا تحد متفقة : ان كل ذي حياة تربّى تحت كنف رحيمية رزاق واجد أحد ذي الجلال .

نعم ، ان تسارع أرزاق الاشجار اليها وهي المحتاجة للرزق دون ان يكون لها اقتدار ولا اختيار ولا إرادة وهي ساكنة في أماكنها متوكلة على الله ... وكذا سيلان الحليب المصفى من تلك المضخات العجيبة الى أفواه الصغار العاجزين ، وانقطاع تلك النفقة مباشرة عنهم بعد اكتسابهم جزءاً من الاقتدار وشيئاً من الاختيار والارادة ، مع استمرار تلك الشفقة الموهوبة للامهات .... كل ذلك ؛ ليثبت بداهة :

ان الرزق الحلال لا يأتي متناسباً مع القدرة والارادة وانما يأتي متناسباً مع الضعف والعجز اللذين يمنحان التوكل .

ولقد ساق وجود قوة الاقتدار والاختيار والذكاء ـ المثيرة للحرص القائد الى الحرمان على الأغلب ـ أولئك الأدباء الذين يستشعرون بها الى التذلل والى ما يشبه التسول ، بينما أوصل عدم الاقتدار المكلل بالتوكل أغلب العوام البُله الى الثراء والغنى ، حتى سار مثلاً :

كم عالمٍ عالمٍ أعيت مذاهبه ... وجاهلٍ جاهل تلقاهُ مرزوقاً

مما يثبت ان الرزق الحلال لا يحصل عليه المخلوق ولا يجده بقوة الاقتدار والاختيار ، وانما يُعطى له من لدن مرحمة قد قبلت كدّه وسعيه ، ويُحسن اليه من عند شفقة ورأفة رقّت على احتياجه وافتقاره ·

غير ان الرزق نوعان :

الاول : الرزق الحقيقي والفطري للمعيشة ، الذي هو تحت التعهد الرباني ، وهو مقدّر الى حدّ ان المدّخر منه في الجسم بصورة دهون أو بصور أخرى يمكنه أن يعيّش الانسان ويديم حياته أكثر من عشرين يوماً دون أن يذوق طعاماً ، فالذين يموتون جوعاً في الظاهر قبل عشرين أو ثلاثين يوماً من دون أن ينفد رزقهم الفطري لا ينشأ موتهم من انعدام الرزق ، بل من مرض ناشيء من سوء التعود ومن ترك العادة ·

والقسم الثـاني من الرزق : هو الرزق المجازي والاصطناعي الذي يكون بحكم الضروري بعد أن يدمن الانسان عليه بالتعود والاسراف وسوء الاستعمال · وهذا القسم ليس ضمن التعهد الرباني وتكفله بل هو تابع الى احسانه سبحانه · فاما أن يمنحه أو يمنعه ·

فالسعيد ـ في هذا الرزق الثاني ـ والمحظوظ فيه ، هو من يعلم ؛ ان السعي الحلال بالاقتصاد والقناعة ـ وهما مدارا السعادة واللذة ـ هو نوع من العبادة ، وهو دعاء فعلي لكسب الرزق لذا يقضي هذا السـعيد حياته بهناء ويقبل ذلك الاحسان شاكراً ممتناً ·

والشقي التعس في هذا الرزق هو من يتخلى عـن السـعي الحـلال بالاسراف والحرص ـ وهما سبب الشقاء والخسارة والألم ـ فيقضي حياته بل يهلكها ـ بطرق كل باب ـ بالكسل والتظلم والتشكي ·

فكما ان المعدة تطلب رزقاً ، فالقلب والروح والعقل والعين والاذن والفم وامثالها من لطائف الانسان ومشاعره هي الاخرى تطلب رزقها مـن

الرزاق الرحيم ، وتاخذه منه سبحانه بكل شكر وامتنان • فيهب سبحانه لكل منها – من خزائن رحمته – رزقها الذي يناسبها وترضى به وتلتذ • بل ان الرزاق الرحيم قد خلق كلاً من تلك اللطائف كالعين والأذن والقلب والخيال والعقل وأمثالها بمثابة مفتاح لخزينة رحمته كي يغمرها بالرزق الواسع • فمثلما ان العين هي مفتاح لخزائن الجـواهر القيمة من الحسن والجمال المنبسط على وجه الكائنات ، فاللطائف الاخرى كذلك كل واحدة منها هي مفتاح لعالم معين ، تستفيد منـه بالايمان ••• وعلى كل حـال فلنرجع الى صدد الموضوع •

فكما ان الخالق القدير الحكيم قد خلق الحياة خلاصة جامعة مستخلصة من الكائنات يحشـد فيهـا مقاصده العامـة وتجليات أسمائه الحسنى • كذلك فانه سبحانه قد جعل الرزق في عالم الحياة مركزاً جامعاً للشؤون الربانية خالقاً في ذوي الحياة غريزة الاشتهاء وتذوق الرزق ، ليفسح بذلك المجال لأهم غاية لخلق الكائنات وحكمتها وهي جعل المقابل في شكر ورضى دائمين وكليين يتمان بكل خضوع وعبودية أمام ربوبيته وتودده سبحانه •

فمثلاً : كما أنه سبحانه عمّر كل طرف من أطراف المملكة الربانية الواسعة جداً ؛ فعمّر – بخاصة – السماوات بالملائكة والروحانيين ، وعمّر عالم الغيب بالأرواح ، فانه عمّر كذلك العالم المادي – لحكمة بث الروح واضفاء البهجة فيه وبخاصة عالم الهواء والارض ، بل كل جهة منه وفي كل وقت وأوان – بوجود الأحياء وبخاصة الطيـــور والطويرات والحشرات • فغرز – سبحانه – الاحتياج للرزق وتذوقه في الحيوانات والانسان ؛ وجعلهم يسعون دوماً وراء رزقهم ، وكان ذلك الاحتياج سوط تشويق لهم فيسوقهم سبحانه ويحركهم ويجريهم وراء الرزق منتشلاً إياهم من الكسل والعطالة ، وما ذلك إلا حكمة من حكم الشؤون الربانية • ولولا أمثال هـذه الحكمة من الحكم المهمة لكان سبحانه يجعل التعيينات المقننـة للحيوانات تسعى

اليها دون كدٍ وعناء ولحاجة فطرية كما جعل أرزاق النباتات تسعى اليها هكذا ·

ولو وجدت عين تستطيع رؤية أنواع الجمال لاسم الرحيم وأوجه الحسن لاسم الرزاق وشهادتهما للوحدانية رؤيةً تامة بحيث تتمكن من الاحاطة كلياً بسطح الأرض ومشاهدته في آن واحد ، لكانت ترى مدى متعة الجمال ومدى لذة الحسن في تجلي شفقة الرزاق الرحيم ورأفته الذي يمدّ إمداداً غيبياً ويحسن احساناً رحمانياً قوافل الحيوانات التي كادت تنفد أرزاقها في أواخر الشتاء ، بأطعمة ونِعمٍ في منتهى اللذة ومنتهى الكثرة ومنتهى التنوع مودعة اياها في أيدي النباتات وموضوعة على هامات الأشجار ومعلقة في أثداء الوالدات ومرسلة لها من خزائن رحمة غيبية صرفة ، وعند ذلك تدرك ادراكاً بأن الذي يصنع تفاحة واحدة - مثلاً - ويهبها رزقاً حقيقياً ، منعماً بها ، على شخص ، لا يمكن ان يكون الا الذي يدير كل المواسم والليالي والأيام والذي يجعل الكرة الأرضية كسفينة تجارية يبحرها ويسيحها مستحصلاً بها محاصيل المواسم فيأتي بها الى ضيوفه المعوزين في الأرض ، ذلك لأن سكة الفطرة ، وختم الحكمة ، وطغراء الصمدية ، وختم الرحمة ، الموجودة على جبين تلك التفاحة الواحدة ، موجودة ، كذلك على جبين تفاح الأرض كلها وعلى سائر الاثمار والفواكه وعلى النباتات والحيوانات جميعها · لذا فان مالك تلك التفاحة الواحدة وصانعها الحقيقي هو مالك وصانع أمثالها وأشباه جنسها من سكنة الارض وهو مالك وصانع الارض الضخمة التي هي حديقتها ، وهو بارىء شجرة الكائنات التي هي مصنعها · وهو موجد موسمها الذي هو معملها وهو باعث الربيع والصيف اللذين هما ميدان تربيتها ونموها ، ذلكم المالك ذو الجلال والخالق ذو الجمال · لا شريك له ولا إله غيره ·

فكل ثمرة إذاً هي ختم رائع واضح للوحدة ، بحيث يعرّف كاتب وصانع شجرتها وهي الأرض ، ويعرّف كاتب وخالق حديقتها وهي كتاب الكائنات ، ويبرز وحدته سبحانه • ويشير الى أن أمر الوحدانية قد ختم باختام تصديق عديدة بعدد الأثمار •

ولكون (رسائل النور) مظهراً لأسمي (الرحيم والحكيم) من الاسماء الحسنى ولبيان واثبات لمعات كثيرة لحقيقة الرحيمية وأسرارها الغزيرة في عدة أجزاء من أجزاء رسائل النور ، نحيل القارىء الكريم اليها • وقد أكتفي بهذه الاشارة القصيرة الى تلك الخزينة الغنية الكبيرة نظراً لحالتي غير الملائمة •

وهكذا فصاحبنا السائح يقول : الحمد لله ! الذي وفقني ان أسمع الحقائق الثلاث والثلاثين التي تشهد على وجوب وجود خالقي ومالكي وعلى وحدته ، والذي ظللت أبحث عنه في كل مكان وأسأل عنه كل شيء • تلك الحقائق التي كل منها عبارة عن شمس مشرقة تبدد كل ظلام ، وكل منها بقوة الجبل الراسخ المستقر ، وكل منها بتحقيقاتها تشهد في غاية القطعية على وجوده سبحانه وتدل باحاطتها في غاية الجلاء على وحدته ، وتثبت خلالها سائر الاركان الايمانية إثباتاً قوياً • وان إجماع مجموع الحقائق واتفاقها قد حولت ايماننا من التقليد الى التحقيق ، ومن التحقيق الى علم اليقين ، ومن علم اليقين الى عين اليقين ، ومن عين اليقين الى حق اليقين ، فالحمد لله ••• هذا من فضل ربي •

« **الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كُنّا لنَهتَدي لولا أنْ هدانا الله لقَدْ جاءتْ رُسُلُ ربِّنا بالحق** » (الاعراف /٤٣) •

هذا وقد جاءت في الباب الثاني من المقام الأول إشارة قصيرة جداً الى الأنوار الايمانية التي اكتسبها هذا السياح الباحث المشتاق في مشاهداته في المنزل الثالث من الحقائق الاربعة المعظمة :

« لا إله إلاّ الله الواحد الأحد الذي دلّ على وحدته في وجوب وجوده : مشـاهدة عظمة احاطـة حقيقة الفتاحية ، بفتح الصور لأربع مائة ألف نوع من ذوي الحياة المكملة بلا قصور ، بشهادة فنِ النبات والحيوان ·· وكذا مشـاهدة عظمة احاطة حقيقة الرحمانية الواسعة المنتظمة بلا نقصان بالمشاهدة والعيـان ·· وكـذا مشـاهدة عظمـة حقيقـة الادارة المحيطة لجميع ذوي الحياة والمنتظمة بلا خطأ ولا نقصان ·· وكذا مشـاهدة عظمة احاطة حقيقة الرحيمية والاعاشة الشاملة لـكل المرتزقين المقننة في كل وقت الحاجة بلا سهو ولا نسيان جل جلاله رَزَّقَهـا الرحمـنُ الرحيـم الحنان المنان وعَمّ نوالُـهُ وشَمِلَ إحسانه ولا إلهَ الاّ هو » ·

(سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا إنك انت العليم الحكيم) ·

يـا ربِّ

بحق بسم الله الرحمن الرحيم · يا الله يا رحمن يا رحيم صلِ وسلم على سيدنا محمد على آله وأصحابه أجمعين بعدد جميع حروف رسائل النور المضروب تلك الحروف في عاشـرات دقائق جميع عمرنـا في الدنيـا والآخرة مع ضرب مجموعها في ذرات وجودي في مدة حياتي واغفر لي ولمن يعينني في نشـر رسائل النـور وكتابتها بصداقة بكل صلاة منها ولآبائنا ولساداتنا وشيوخنا ولأخواتنا واخواننا ولطلبة رسالة النـور الصادقين وبالخاصة لمن يكتب ويستنسخ هذه الرسالة برحمتك يا أرحـم الراحمين آمـين ·

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)

مهمــة رســائل النــور

استمعت في هذه الأيام ضمن محاورة معنوية لسؤال وجواب ، أبين لكم خلاصة منهما :

قال أحدهم : ان التحشيدات العظيمة لرسـائل النـور وتسلّحهـا بتجهيزات كلية ، وجهادها لأجل الايمان والتوحيد تزداد باطراد • وعلى الرغم من ان واحدة منها كافية لالزام أعتى عنيد ، فَلِمَ توالي – وبهـذه الدرجة من الحرارة والفعالية – تحشيدات جديدة لذلك ؟

قالوا جواباً له :

« ان رسائل النور لا تعمّر تخريبات جزئية ، ولا ترمم بيتاً صغيراً مهدماً فحسب ، بل تعمّر تخريبات عامة كلية ، وترمم قلعة محيطة عظيمة – صخور منها كالجبال – تحتضن الاسلام وتحيط به • وهي لا تسـعى لاصلاح قلب خاص ووجدان معين فحسب ، بل تسعى – وبيدهـا اعجـاز القرآن – لمداواة القلب العام ، وضماد الافكار العـامة المكلومة بالوسـائل المفسدة التي هيئت لها وركمت منذ ألف سنة ، وتنشط لمداواة الوجدان العام الذي توجّه نحو الفسـاد نتيجـة تحطم الاسس الاسلامية وتياراته وشعائره التي هي المسـتند العظيم للجميـع وبخاصة عـوام المؤمنـين • نعم انها تسعى لمداواة تلك الجروح الواسعة الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والايمـــان •

فأمام هـذه التخريبات الكليـة الرهيبـة ، والشـقوق الواسـعة ، والجروح الغائرة ، ينبغي وجود حجج دامغة واعتدة مجهّزة بدرجة حـق اليقين وبقوة الجبال ورسوخها ، ووجود ادوية مجرّبة لهـا من الخـواص

ما يفوق ألف ترياق وترياق (مضاد للسموم) ولها من المزايا ما يضاهي علاجات لا حدّ لها ٠

هـذه هي مهمـة رسائل النور النابعة من الاعجاز المعنوي للقـرآن الكريم ، وفي الوقت الذي تقوم بها في هذا الزمان أتم قيام ، فهي تحظى بكونها مدار انكشاف لمراتب غير محدودة للايمان ومصدر رقي في مدارجه السامية غير المتناهية » ٠

وعلى هذا المنوال جرت مكالمة طويلة ٠ فسمعتها كاملة ، وشكرت الله كثـيراً ، أجملتهـا لـكم ٠

سـعيد النورسـي

* * *

[المبحث الثاني من الموقف الثالث من الكلمة الثانية والثلاثين]

مقــــارنة

ان ممثل أهل الضلالة وداعيتها ، عندما لا يجد ما يبني عليه ضلالته ، وعندما تفوته البينة وتلزمه الحجة يقول :

ان سعادة الدنيا ، والتمتع بلذة الحياة ، والرقي والحضارة ، والتقدم في الصنعة ــ بالنسبة لي ــ هي : في عدم تذكر الآخرة ، وفي عدم الايمــان بالله ، وفي حب الدنيــا ، وفي التحرر مــن القيود ، وفي الاعتــداد بالنفس والاعجاب بهــا ٠٠ لــذا سقت أكثــر الناس ولا زلت أسوقهم ــ بهمـــة الشيطان ــ الى هذا الطريق ٠

الجواب : ونحن بدورنا نقول باسم القرآن الكريم :

أيها المسكين ! عد الى رشدك ! لا تصغ الى داعيــة أهــل الضلالة ٠ ولئن ألقيت السمع اليه ليكونن خسرانك من الفداحة ما يقشعر من هول تصوره الروح والعقل والقلب ٠ فأمامك طريقان :

الاول : هو طريق ذو شقاء يريه إياك داعية الضلالة ٠

الثاني : هو الطريق ذو السعادة الذي يبينه لك القرآن الحكيم ٠

ولقــد رأيت كثيراً مــن الموازنات بين ذينــك الطريقين في كثير مــن « الكلمات » ولا سيما في « الكلمات الصغيرة » ٠ والآن انسجاماً مع البحث تأمل في واحدة من ألف من المقارنات والموازنات وتدبر فيها ، وهي كالآتي :

ان طريق الشرك والضلالة والسفاهة والفسوق يهــوي بالانسان الى منتهى السقوط والى أسفل سافلين ، ويلقي على كاهله الضعيف العاجــز

ـ في غمرة آلام غير محدودة ـ عبئاً ثقيلاً لا نهاية لثقله ؛ ذلك لأن الانسان إن لم يعرف الحق سبحانه وتعالى ، وإن لم يتوكل عليه ، فسيكون بمثابة حيوانٍ فانٍ ؛ حيث يتألم دوماً ويحزن باستمرار ، ويتقلب في عجز وضعف لا نهاية لهما ، ويتلوى في حاجة وفقر لا نهاية لهما ، فيتعرض بمصائب لا حد لها ، ويتجرع آلام الفراق من التي استهواها ونسج بينه وبينها خيوط العلاقات ، فيتجرع وما زال يتجرع ، حتى يغادر ما بقي من أحبائه نهاية المطاف ويفارقهم جزعاً وحيداً غريباً الى ظلمات القبر ٠

وسيجد نفسه طوال حياته أمام آلام وآمال لا نهاية لهما ، بينما لا يملك سوى ارادة جزئية ، وقدرة محدودة ، وحياة قصيرة ، وعمر زائل ، وفكر آفل ٠٠ فتذهب جهوده في تطمينها سدى ؛ إذ ليس له من القوة ما يستطيع بها أن يدفع الآلام عنه ، وليس له من القدرة ما يستطيع بها أن يحقق آماله ٠٠ وهكذا تمضي حياته دون أن يجني ثمراً ٠

وبينما نجده عاجزاً عن حمل أعباء نفسه ، نراه يحمّل عاتقه وهامته المسكينة أعباء الدنيا الضخمة ، فيتعذب بعذاب محرق أليم قبل الوصول الى عذاب الجحيم ؛ ولكيلا يشعر أهل الضلالة بهذا الألم المرير والعذاب الروحي الرهيب ، يلقون أنفسهم في أحضان الغفلة ليبطلوا شعورهم ويخدروا إحساسهم ـ مؤقتاً ـ بسكرها ٠٠ ولكنما أن يدنو أحدهم من شفير القبر حتى يرهف إحساسه ويضاعف شعوره بهذه الآلام دفعة واحدة؛ ذلك لأنه إن لم يكن عبداً خالصاً لله تعالى فسيظن أنه مالك نفسه ، مع أنه عاجز حتى عن ادارة كيانه وحده أمام هذا الخضم الزخار من أحوال هذه الدنيا المتقلبة ، ومع أنه فقير لا يملك سوى ارادة جزئية وقدرة متواضعة ضئيلة ، اذا به يرى عالماً من الاعداء يحيط به ـ ابتداءً من أدق الميكروبات وانتهاءً بالزلازل المدمرة ـ وهي على أتم استعداد للانقضاض عليه والاجهاز على حياته ، فترتعد فرائصه ويرتجف قلبه رعباً وهلعاً كلما تخيل القبر ونظر اليه ٠

وبينما يقاسي هذا الانسان ما يقاسي من وضعه اذا بأحوال الدنيا التي يتعلق بها ترهقه دوماً ، واذا بأوضاع بني الانسان الذي يرتبط بهم تنهله باستمرار ، ذلك لظنه : أن هذه الاحداث والوقائع ناشئة من لعب الطبيعة وعبث المصادفة ، وليست من تصرف واحد أحد حكيم عليم ، ولا من تقدير قادر رحيم كريم ، فيعاني – مع آلامه هو – آلام الناس كذلك ، فتصبح الزلازل والطاعون والطوفان والقحط والغلاء والفناء والزوال وما شابهها مصيبة قاتمة مزعجة معذبة !

ولما كان هذا الانسان قد اختار بنفسه هذا الوضع المفجع ، فلا يثير اشفاقاً عليه ، ولا رثاء على حاله ... مثله في هذا كمثل الذي ذكر في الموازنة بين الشقيقين في « الكلمة الثامنة » من أن رجلاً لم يقنع بلذة بريئة ونشوة نزيهة وتسلية حلوة ونزهة شريفة مشروعة ، وهو بين أحبة لطفاء في روضة فيحاء وسط ضيافة كريمة ، فراح يتعاطى الخمر النجسة ليكسب لذة غير مشروعة .. حتى بدأ يخيّل اليه أنه في مكان قذر ، وبين ضواري مفترسة ، تصيبه الرعشة كأنه في شتاء ، وبدأ يستصرخ ويستنجد فلم يشفق عليه أحد ، لأنه يتصور أصدقاءه الطيبين حيوانات شرسة ، ويبدأ بتحقيرهم واهانتهم ... ويتوهم الاطعمة اللذيذة والاواني النظيفة التي في صالة الضيافة أحجاراً ملوثة ، ويبدأ بتحطيمها ... ويظن الكتب القيمة والرسائل النفيسة في المجلس نقوشاً عادية وزخارف لا معنى لها ، ويبدأ بتمزيقها ورميها تحت الاقدام .

نعم ! فكما أن هذا الشخص – وأمثاله – ليس أهلاً للرحمة ولا يستحق الرأفة ، بل يستوجب التأديب والتأنيب ، كذلك الحال مع مَن يتوهم بسكر الكفر وجنون الضلالة الناشئين من سوء اختياره : أن الدنيا – التي هي مضيف للصانع الحكيم – لعبة المصادفة العمياء ، وألعوبة الطبيعة الصماء ... ويتصور عبور المصنوعات الى عالم الغيب مع تيار الزمن ، بعد أن أنهت مهامها واستنفذت أغراضها – وهي التي تجدد

تجليات الاسماء الحسنى ـ كأنها تصب في بحر العدم ووادي الانعدام وتغيب في شواطىء الفنـاء ··· ويتخيل أصوات التسبيح والتحميد ـ التي تملأ الاكـوان والعوالـم ـ أنينـاً ونواحـاً يطلقه الزائلون الفانون في فراقهـم الابدي ··· ويحسب صحائف الموجودات ـ التي هي مكتوبات صمدانيـة رائعة ـ خليطاً لا معنى له ولا مغزى ·· ويخال باب القبر ـ الذي يفتـح الطريق الى عالم الرحمة الفسيح ـ نفقاً يؤدي الى ظلمات العدم ··· ويتصور الاجل ـ الذي هو دعوة الوصال واللقاء بالاحباب الحقيقيين ـ أنـــه أوان فراق الاحبة جميعهم !

نعم ! ان الذي يعيش في دوامة هذه التصورات والاوهام يلقي نفسـه في أتون عذاب دنيوي أليم ، فضلا عن أنه لا يكون أهلا لرحمة ولا رأفة ، ذلك لقيامـه بتحقير الموجودات باتهامها بالعبثيـة ، وتزييف الاسـماء الحسنى بانكاره تجلياتها الظاهرة علـى الموجودات · وانكار المكتوبات الربانيـة في المخلوقات بردّه شهاداتها على الوحدانية ·

فيا أيها الضالون السفهاء ، ويا أيها التعساء الاشقياء !

ترى هل يجدي أعظم « علومكم » ، وأعلـى صروح « حضارتكم » ، وأرقى مراتب « نبوغكم » وأنفذ خطط « دهائكم » ، نعم هل يجدي شيئاً امام هذا السقوط المخيف المريع للانسان ؟ وهل يستطيع الصمود حيال هذا اليأس المدمر للروح البشرية التواقة الى السلوان ؟ وهل يقـدر ما تطلقون من « طبيعة » لكم ، وما تسندون اليه الآثار الالهية من « اسباب » عندكم ، وما تنسبون اليه الاحسانات الربانية من « شريك » لديكم ، وما تتبـاهون به من « كشوفاتكم » وما تعتزون به من « قومكم » ، وما تعبدون مـــن « معبودكم » الباطل ·· هل يستطيع كل اولئك من انقاذكم من ظلمـــات « الموت » الذي هو اعدام أبدي لديكم ؟ وهل يستطيع كل أولئك امراركـم من حدود القبر بسلامة ، ومن تخوم البرزخ بأمـان ، ومن ميدان الحشـر

باطمئنان ، ويتمكن أن يعينكم على عبور جسر الصراط بحكمة ، ويجعلكم أهلا للسعادة الابدية والحياة الخالدة ؟

انكم لا محالـة ماضون في هـــذا الطـريق ، إذ ليس بمقـدوركم أن توصدوا باب القبر دون أحد • فأنتم مسافرو هذا الطريق لا مناص • ولابد لمن يمضي في هذا الطريق من أن يستند ويتكل على مَن له علم محيط شامل بكل دروبه وشعابه وحدوده الشاسعة ، بل تكون جميـــع تلك الدوائـر العظيمة تحت تصرفه وضمن أمره وحكمه •

فيا أيها الضالون الغافلون !

أن ما أودع في فطرتكم من استعداد المحبـة والمعرفـة ، ومن وسائط الشكر ووسائل العبادة التي يلزم أن تبذل الى ذات الحق تبارك وتعـالى ، وينبغي أن تتوجـه الى صفاته الجليلة وأسـمائه الحسنى ، قـد بذلتموها ـ بذلا غير مشروع ـ الى أنفسكم والى الدنيـا •• فتعانون ـ مستحقين ـ عقابها ، وذلك بسر القاعدة : « **أن نتيجة محبة غير مشروعة تجرّع عذاب اليم لا رحمة فيه** » • لأنكم وهبتم المحبة التي تخص الله سبحانه وتعالى الى أنفسكم ، فتعانون بلايا غير محدودة من محبوبتكم التي لم تمنحوا لها قسطاً من راحتها الحقيقة بتسليم أمرها ـ بالتوكل ـ الى المحبوب الحق وهو الله القدير المطلق ، فتقاسون منها الالم الدائم ••• وأعطيتم المحبة التي تعـود الى أسماء الله الحسنى وصفاته الجليلة المقدسة الى الدنيا ، فوزعتم آثـار صنعته البديعة وقسمتموها بين الاسباب المادية ، فتذوقون وبال عملكم ؛ فقسمٌ من أحبائكم الكثيرين يغادرونكم مدبرين ظهورهم اليكم دون توديع ، ومنهم مَن لا يعرفونكم أصلاً ، وحتى إذا عرفوكم لا يحبونكم ، وحتى إذا أحبوكم لا ينفعونكم ، فتظلون في عذاب مقيم من أعذبة فراقات لا حد لها ، ومن آلام زوال يائس من العودة •

هذه هي حقيقة ما يدعيه أهل الضلالة ، وماهية ما يدعون اليـه من

سعادة الحياة ، وكمال الانسان ، ومحاسن الحضارة ، ولذة التحرر !!

ألا ما أكثف حجاب السفاهة والسكر الذي يخدّر الشعور والاحساس مؤقتـــاً !!

ألا قل : تبـاً لعقل أولئك الضالين !ّ

أما الصراط المستقيم أو الجادة المنورة للقـرآن الكريم فانــه يداوي جميع تلك الجروح اتلي يعاني منها أهل الضلالة بالحقائق الايمانية ، ويبدد كل تلك الظلمات السابقة في ذلك الطريق ، ويسد جميع أبواب الضلالـــة والهلاك كالآتي :

انه يداوي « ضعف » الانسان و « عجزه » و « فقره » و « واحتياجه » بالتوكل . أي يجعل الانسان متوكلاً على التقدير الرحيم ، مُسلـّماً أثقال الحياة وأعباء الوجود الى قدرته سبحانه والى رحمته الواسعة دون أن يحملها على كاهله ، بل يجعل الانسان مالكاً لزمام نفسه وحياته ، فيوجد له بذلك مقاماً مريحاً ومرتبــة أمينــة ، ويعرّفه بأنه ليس بحيوان ناطق ، بل هــو انسان بحق وضيف عزيز مكرم عند الملك الرحمن .

ويداوي أيضاً تلك الجروح الانسانية الناشئة من « فنــاء » الدنيـا وزوال الاشياء ، ومن حب الفانيات ، يداويها بلطف وحنان باظهاره الدنيا دار ضيافــة الرحمن ومبيناً أن ما فيهــا من الموجودات هي مرايا الاســماء الحسنى ، وموضحاً أن مصنوعاتها مكتوبات ربانية تتجدد كل حـين باذن ربها ، وبهذا ينقذ الانسان من قبضة ظلمات الاوهام .

ويداوي أيضاً تلك الجروح التي يتركها « الموت » الذي يتلقاه أهــل الضلالة فراقاً أبدياً عن الاحبة جميعاً ، ببيانه أن الموت : مقدمــة الوصال واللقاء مع الاحباء الذين رحلوا الى عالم البرزخ والذين هم الآن في عالـــم البقاء ، ويثبت أن ذلك الفراق ليس إلاّ اللقاء بعينه .

ويزيل كذلك أعظم خوف للانسان باثباته أن القبر باب مفتوح الى عالم الرحمة الواسعة ، والى دار السعادة الابدية ، والى رياض الجنان ، والى بلاد النور للرحمن الرحيم ، مظهرا أن سياحة البرزخ - التي هي أشد ألما وأشقى سياحة عند اهل الضلالة - هي أمتع سياحة وآنسها وأسرّها ، فيوصد بالقبر فم التنين المرعب فاتحا الباب الى روضة الرحمن فليس هو اذن بفم ثعبان عظيم .

ويقول للمؤمن :

اذا كانت ارادتك واختيارك جزئي ، فدع أمرك للارادة الكلية لمولاك ... واذا كان اقتدارك ضعيفا فاعتمد على قدرة القادر المطلق ... واذا كانت حياتك فانية وقصيرة ففكر بالحياة الباقية الابدية ... واذا كان فكرك خافتاً فأدخل تحت نور شمس القرآن الكريم ، وانظر بنور الايمان كي تمنحك كل آية من الآيات القرآنية نوراً كالنجوم المتلألئة الساطعة بدلا من ضوء فكرك الباهت الذي هو كضوء اليراعة ضئيل ... واذا كانت لديك آمال وآلام غير محدودة فان ثوابا لا نهاية له ورحمة لا حد لها ينتظرانك ... واذا كانت لك غايات ومقاصد لا تحد ، فلا تقلق متفكراً بها فهي لا تحصر في هذه الدنيا ، بل مواضعها وأماكنها ديار أخرى ، ومانحها جوّاد كريم واسع العطاء .

ويخاطب الانسان أيضا ويقول :

أيها الانسان : أنت لست مالكا لنفسك .. بل أنت مملوك للقادر المطلق القدرة ، والرحيم المطلق الرحمة ، فلا ترهق نفسك بتحميلها مشقة حياتك . فان واهب الحياة هو الذي يقوم بادارتها أيضاً .. ثم أن الدنيا ليست سائبة دون مالك ، كي تقلق عليها وتكلف نفسك حمل أعبائها وترهق فكرك في أحوالها ، ذلك لأن صاحبها حكيم ومولاها عليم ، وأنت لست الا ضيفاً لديه ، فلا تتدخل بفضول في الامور ، ولا تخلطها من غير

فهم ··· وكذا الانسان والحيوان ليسوا موجودات مفلوتة الزمام ، بــل موظفون مأمورون تحت هيمنة حكيــم رحيــم وتحت اشـرافه · فلا تجرّع روحك اذن ألمًا بالتفكر في مشاق أولئك وآلامهم ولا تقدم رأفتك عليهم بين يدي رحمة خالقهم الرحيم ·

واعلم أن زمام أولئك الذين اتخـذوا طـور العـداء معك ابتداء مـن الميكروبات الى الطاعون والطوفان والقحط والزلازل ، بل زمام كـل شيء بيد ذلك الرحيم الكريم سبحانه فهو حكيم لا يصدر منه عبث ، وهو رحيم واسع الرحمة ، فكل عمل يعمله وكل فعل يقوم به ، يحمل في طياته نوعا من اللطف والرأفه ·

ويقول أيضا :

على الرغم من أن هذا العالم فانٍ ، الا أنه يهيىء لوازم العالم الابدي ··· وعلى الرغم من أنه زائل ومؤقت ، الا أنه يوتي أثمارا باقية ، ويظهر تجليات رائعة من تجليات الاسماء الحسنى الخالدة ··· وعلى الرغم من أن لذائذه قليلة وآلامه كثيرة ، الا أن لطائف الرحمن الرحيم وتكرمــه وتفضله ـ هي بذاتها ـ لذّات حقيقيه لا تزول ، أما الالام فهي الاخرى تولـد لذّات معنوية من جهة الثواب الأخروي ·

فما دامت الدائرة المشروعة كافية ليأخذ كل من الروح والقلب والنفس لذّاتها ونشواتها جميعا ، فلا داعي اذن أن تلج في الدائرة غير المشروعة ، لأن لذة واحدة من هذه الدائرة قد يكون لها ألفُ ألم وألم ، فضلا عن أنهـا سبب الحرمان من لـذة تكريم الرحمن الكريم ، وهي لذة خالصـة زكيـة دائمة خالدة ·

هكذا يتبين مما سبق بأن طريق الضلالـة يردي الانسان الى أســفل سافلين ، الى حد تعجز أية مدنية كانت وأية فلسفة كانت عن ايجـاد حل

له ، بل يعجز الرقي البشري أياً كان ، وما بلغه من مراتب العلم عن اخراجه من تلك الظلمات السحيقة التي في الضلالة ٠

وبينما الانسان يتقلب في ما يعانيه من آلام وأوجاع اذا بالقرآن الكريم يأخذ بيده ـ بالايمان والعمل الصالح ـ ويرفعه من أسفل سافلين الى أعلى عليين ، ويبين له الدلائل القاطعة ويبسط أمامه البراهين الدامغة على ذلك ، فيردم تلك الاغوار العميقة بمراتب رقي معنوي وبأجهزة تكامل روحي ، وييسر له ـ بسهولة مطلقة ـ رحلته الطويلة المضنية العاصفة نحو الابدية ، ويهوّنها عليه ؛ وذلك بابرازه الوسائط والوسائل التي يمكن أن يقطع بها مسافة ألف سنة ، بل خمسين ألف سنة في يوم واحد ٠

وكذا يضفي على الانسان جلباب العبودية ويكسبه طور عبد مأمور ، وضيف موظف لدى الذات الجليلة ، وذلك بتعريفه أن الله سبحانه هو مالك الازل والابد ، فيضمن له راحة تامة في سياحته في الدنيا المضياف أو في منازل البرزخ في ديار الآخرة ٠٠٠ نعم ، كما أن الموظف المخلص للسلطان يتجول بيسر تام في دائرة مملكة سلطانه ، ويتنقل من تخوم ولاياته بوسائط سريعة كالطائرة والباخرة والقطار ، كذلك الانسان المنتسب بالايمان الى المالك الازلي فانه يمر بالعمل الصالح من منازل الدنيا المضياف ومن دوائر عالمي البرزخ والحشر ومن حدودهما الواسعة الشاسعة بسرعة البرق والبراق ٠٠ فيثبت القرآن الكريم هذه الحقائق إثباتاً قاطعاً ويبرزها عياناً للأصفياء والأولياء ٠

ثم تستأنف حقيقته قائلة :

أيها المؤمن لا تبذل ما تملكه من قابلية غير محدودة للمحبة الى نفسك التي هي أمارة بالسوء وهي قبيحة ناقصة ، وشريرة مضرة لك ، ولا تتخذها محبوبتك ومعشوقتك ، ولا تجعل هواها معبودتك ، بل اجعل محبوبك مَن هو أهلٌ لمحبة غير متناهية ٠٠ ذلكم القادر على الاحسان اليك احساناً

لا نهاية له ، والقادر على اسعادك سعادة لا منتهى لها ، بل يسعدك كذلك بما يجزل من احساناته على جميع من ترتبط معهم بعلاقات ، فهو الذي له الكمال المطلق والجمال المقدس ، ذلك الجمال المنزه عن كل نقص وقصور وزوال وفناء ·· فجماله لا حدود له وجميع أسمائه جميلة وحسنى ·

نعم أن في كل اسم من أسمائه أنوار حُسن وجمال لا نهاية لها ؛ فالجنة ـ بجميع لطائفها وجمالها ونعيمها ـ انما هي تجلٍ لاظهار جمال رحمته ورحمة جماله ، وجميع الحسن والجمال والمحاسن والكمالات المحبوبة والمحببة في الكون كله ما هي الا اشارة الى جماله ودلالة الى كماله سبحانه ·

ويقول أيضاً :

ان ينابيع المحبة المتفجرة في أعماقك والمتوجهة الى الله سبحانه والمتعلقة بأسمائه الحسنى والمولهة بصفاته الجليلة لا تجعلها مبتذلة بتشبثها بالموجودات الفانية ، ولا تهدرها دون فائدة على المخلوقات الزائلة ، ذلك لأن الآثار والمخلوقات فانيتان ، بينما الاسماء الحسنى البادية تجلياتها وجمالها على تلك الآثار وعلى تلك المصنوعات باقية دائمة ··· ففي كل اسم من الاسماء الحسنى ، وفي كل صفة من الصفات المقدسة هناك ألوف من طبقات الكمال ·

فانظر ـ مثلاً ـ الى اسم « الرحمن » فحسب لترى : أن الجنة احدى تجلياته ، والسعادة الابدية احدى لمعاته ، وجميع الارزاق والنعم المبثوثة في أرجاء الدنيا كافة احدى قطراته ··· فأنعم النظر وتدبر في الآيات الكريمة التي تشير الى هذه الموازنة بين ماهية أهل الضلالة وأهل الايمان من حيث الحياة ومن حيث الوظيفة :

[لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات] ·

والآية الاخرى [فما بكت عليهم السماء والارض] اللتان تشيران الى عقبى كل منهما . تأمل فيهما لتجد مدى سمو واعجاز تلك الآيتين في بيان ما عقدناه من الموازنة والمقارنة .

أما الآية الاولى ، فنحيل بيان حقيقة ما يتضمنها من اعجاز في ايجاز الى الكلمة (الحادية عشرة) التى تبينها بياناً مفصلا . وأما الآيـة الثانيـة فسنشير ـ اشارة فحسب ـ الى مدى افادتها عن حقيقة سامية وهي كالآتي:

انها تخاطب قائلة : ان السموات والارض لا تبكيان على موت أهـل الضلالة ، وتخاطب كذلـك ـ بالمفهوم المخـالف ـ : أن السموات والارض تبكيان على رحيل أهل الايمان عن الدنيا . أى : لمـا كان أهـل الضلالة ينكرون وظائف السموات والارض ويتهمونهما بالعبثية ولا يدركون معاني ما يؤديانه من مهام ، فيبخسون حقهما ، بل لا يعرفون خالقهما ولا دلالاتهما على صانعهما ، فيستهينون بهما ، ويتخذون منهما موقف العـداء والاهانة والاستخفاف ، فلابد ألا تكتفي السموات والارض بعدم البكاء عليهم ، بـل يدعوان عليهم ، بل ترتاحان لهلاكهم .

وتقول كذلك بالمفهوم المخالف : أن السموات والارض تبكيان علـى موت أهل الايمان لأنهم يعرفـون وظائفهما ، ويقدرونهما حق قدرهمـا ، ويصدقون حقائقهما الحقة ، ويفهمون ـ بالآيمان ـ ما تفيدان من معانٍ ، حيث أنهم كلما تأملوا فيهما قالوا باعجاب : « ما أجمل خلقهما ! وما أحسن ما تؤديان من وظائف ! » . فيمنحونهما ما يستحقان من القيمة والاحترام ، حيث يبثون حبهم لهما بحبهم لله ، أي لأجل الله ، باعتبارهما مرايا عاكسة لتجليات أسمائه الحسنى . ولهذا تهتز السموات ، وتحزن الارض ، لموت أهل الايمان وكأنهما تبكيان على زوالهم .

فهـــرس

رقم الايداع في المكتبة الوطنية في بغداد ١١١٥ لسنة ١٩٨٣
تم طبع الكتاب في ١٠/١٠/١٩٨٣ (٣٠٠٠ نسخة)

يتقدم « النورسي » في هدوء ذكي ، ليأخذ بيد طالب الحقيقة في جولة رائعة ، شاسعة هائلة ، كي يفتح له فيها مغاليق عقله وقلبه .ويوقفه أمام لوحة الوجود ، وجمالها الاخاذ ومظاهرها البديعة . بادئاً رحلتـه الكونية من عجائب الآفاق العلوية الى مدهشات الكائنات السفلية ، سابراً غورها ، واصفاً اتساقها وتوازنها ولوحاتها الفنية الرائعة ، التـي تأخـذ بالالباب، وتضرب على اوتار القلوب ، فتوقظ الغافل ، وتنير بصيرة الذاهل وتأخذ بيد الجاهل ، الى عالم من حقائق العلم والمعرفة في اطار السـببية الحاسمة ، والغائية العميقة ، والتخطيط الكوني الشـامل الجامـع الذي يقطع بوجود الخالق العظيم الذي « تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ... » .

الدكتور محسن عبدالحميد

الثمن : دينار واحد